هاينرش بول

الملاك الصامت

رواية

ترجمة: طلعت الشايب

الملاك الصامت

- هاينرش بــول
- المــلاك الصامت
- ترجمة: طلعت الشايب

- الطبعة الأولى 2017
- الإخراج الضوئي: هـالا خليـل
- النـاشـــــر: دال للنشـــــر والتوزيـــــع

ســورية ـ دمشق ـ ص.ب: 29170
هـاتـف: 00963944464830
البريد الإلكتروني: n_hammdan@yahoo.com

هاينرش بـول

الملاك الصامت

رواية

ترجمة: طلعت الشايب

العنوان الأصلي للكتاب

The Silent Angel

Heinrich Boll

تقديم

قبل سقوط حائط برلين، كان الكاتب الألماني «هاينرش بول» شوكة في جنبي الشطرين، حيث كان قد كثف جهوده السياسية في السنوات العشر الأخيرة من حياته ليفضح سوء استخدام السلطة والشمولية ويوجه النقد اللاذع لكل ما لا يروق له في ألمانيا الشرقية وألمانيا الغربية ومع ذلك، عندما أعلن خبر وفاته في السادس عشر من يوليو عام 1985 اجتاحت موجة الحداد ألمانيا بشطريها، ونكست أعلام دولتين لم تتفقا على شيء قدر اتفاقهما على رجل ترك بصمات لا تمحى على تاريخ الأدب الألماني، وأنقذ حروف اللغة الواحدة من بين ألسنة النار وأطلال الحرب.

ولد «هاينرش بول» في كولونيا في 21 ديسمبر عام 1917، أي والحرب العالمية الأولى مشتعلة، وبلاده تحت الحكم القيصري. وعندما كان هذا الابن الأصغر لقاطع الأشجار نجار الموبيليا في السادسة من عمره (1923)، كان التضخم المالي يدمر الطبقة الوسطى التي تنتمي

إليها أسرته، وعندما كان في الثانية عشرة، هبت الأزمة الاقتصادية وتوابعها من بطالة وتدهور في كافة مناحي الحياة الاقتصادية والسياسية في عهد جمهورية «ويمر» الضعيفة. وعندما كان في السادسة عشرة، كان «هتلر» قد دخل دار المستشارية وقبض على زمام السلطة. وبعد أن أنهى دراسته الثانوية وتعلم مهنة بيع الكتب أفلت من منظمة الشبيبة الهتلرية قبل أن يلتحق بمعسكرات العمل ويجند إجبارياً (1938) وهو في الثانية والعشرين ويشارك في الحرب لمدة ست سنوات على الجبهتين الشرقية والغربية، ليقع في أسر القوات الأمريكية ويصاب بجروح أكثر من مرة، ويعاني قدر جندي كان يتمنى أن تنتهي الحرب بالهزيمة.

بعد انتهاء الحرب وعودته إلى مدينته «كولونيا» المدمرة في عام 1945 درس الأدب الألماني في الجامعة، وتعرف على مجموعة من الأدباء الشبان الذين كانوا «جماعة 47» بهدف إحياء القيم الإنسانية الخالدة وتجاوز المحنة، حيث قبل ذلك بعامين، كانت قد ولدت كتابة جديدة أطلق عليها البعض «أدب الأنقاض والخرائب»، وكان هو شخصياً يفخر بانتمائه لذلك النوع من الأدب ويقول:

«نحن نكتب إذن عن العودة للوطن وعما رأيناه في الحرب وما وجدناه أمامنا بعد العودة نكتب عن الخرائب والأنقاض، وقد نشأت عن ذلك ثلاثة شعارات علقت على جبين الأديب الشاب: أدب الحرب، والعائدون، والأنقاض».

أما محور ذكرياته ومحط مشاعره فهو «كولونيا» التي عاش فيها وعرفها قبل الحرب، و«كولونيا» الأخرى المدمرة التي عاد إليها... مدينتان لا وجود لهما!

بدا «هاينرش بول» محاولاته الأولى في الكتابة بين عامي 1936 ـ 1938، وهي الفترة التي غادر فيها خيرة الأدباء الألمان بلادهم ليعيشوا في المهجر، ويقول عن بداياته الأولى: لقد حاولت دائماً أن أكتب، وجربت ذلك في وقت مبكر، ولكنني لم أجد الكلمات إلا بعد ذلك بوقت طويل.

ونشر أعماله الأولى في 1946، 1947 لتفوز إحداها في عام 1952 بجائزة «جماعة 47» التي أشرنا إليها وهي مجموعة «*أين كنت يا آدم؟*».

وانطلاقاً من وعي مبكر بأن الأديب لابد أن يكون ضمير أمته واصل «بول» في جميع أعماله هذه ذاكرة الأمة لكي تظل يقظة، وإبراز عبثية الحرب ومحنة الأخلاق التي تدفع البعض إلى إشعالها، فلم تتهرب كتابته من الماضي رغم بغضه ورغم ما خلفه من دمار، ولم تكف عن إدانة مجتمع ما بعد الحرب، المجتمع الذي شغل نفسه بالإنتاج والتوزيع والاستهلاك وفوت على نفسه فرصة محاسبة النفس وتجديدها بالأخلاق. وهكذا كانت خبرات الحرب أساسية ومركزية بالنسبة لأعماله الإبداعية التي توالت والتي تضم القصة القصيرة والرواية

والتمثيلية الإذاعية والمقال وإخراج الأفلام الروائية وتستمر مسيرته إلى أن يحصل على نوبل للأدب عام 1972 (لدوره البارز في تجديد الأدب الألماني منذ الحرب العالمية الثانية) وليكون أول كاتب ألماني يحصل عليها بعد الحرب العالمية الثانية، وقبل ذلك كان قد انتخب رئيساً لنادي القلم الألماني والعالمي من 1971 ـ 1974 ومن أشهر أعمال «هاينرش بول» «*جاء القطار في موعده*» (رواية ـ 1947) و «*أين كنت يا آدم*» (مجموعة ـ 1951) والسؤال هنا موجه من الله لخليفته في الأرض يطالبه بتقديم الحساب عما اقترفت يداه، والإجابة أنه كان في الحرب العالمية، التي يصور عبثها من خلال تدمير وإعادة بناء أحد الجسور ثم تدميره من جديد، ومن خلال مصير البطل الذي يفاجئه الموت في لحظة العودة فيقع صريعاً على أعتاب بيت الأبوين بعد سنوات الحرب المدمرة. وروايات «*لم يقل كلمة واحدة*» ـ 1953 ـ عن الحياة القاسية وسط خرائب المدينة التي بدأ سكانها يستفيدون من المعجزة الاقتصادية و«*بيت بلا حراس*» ـ 1954 ـ عن الحياة بعد الحرب والشقاء الاقتصادي والاجتماعي من خلال ثلاثة أجيال: الحماة التي عاصرت الحربين العظيمين، ثم الزوجة التي عاشت ويلات الحرب الثانية، وأخيراً الأبناء الذين لم يشهدوا الحرب.

و«*خبز الأعوام السابقة*» 1955 و«*بلياردو في التاسعة والنصف*» ـ 1959 و «*آراء مهرج*» ـ 1963 و«*صورة جماعية مع سيدة*» ـ 1971،

مكتبة ٢٨٨

والتي تدور أحداثها في العقدين الثالث والرابع من هذا القرن. البطل في الرواية يتحول إلى مخبر هاو ويقدم تقريراً عن سيدة خرساء يضم معلومات تشكل صورة الحياة والحب في ظل الخطر المقيم والخوف من الدمار والموت، وسلطات الأمن، صورة مربكة متشابكة تعبر عن العصر كله وتعكس حياة ألمانيا على مدى نصف قرن. و«شرف *كاترينا بلوم الضائع*» ـ 1974 التي تصور واقع بلاده على مدى ثلاثة عقود، الإرهاب السائد الذي تمارسه الصحافة ورجال العدالة والشرطة، حيث «كاترينا» مدانة بجريمة لم ترتكبها، وكل ما هنالك أنها أحبت صحفياً تشتبه الشرطة في توجهاته الفكرية... وهي رواية تؤكد أن النازية موجودة في الروح الألمانية سواء وجد «هتلر» أم لا. ورواية «*حماية تامة*» ـ أو الحصار من قبيل الرعاية ـ عن صحفي مشهور، أحد الذين شاركوا في إشعال نار الحرب ولم يحترقوا بها، أسره الأمريكيون واستقطبوه حتى أصبح أحد أساطين الصحافة في ألمانيا ويدافع عن سياستهم ويتحول إلى لعبة أمريكية كبيرة لخدمة سيطرتهم على ألمانيا الغربية.

وفي عام 1985 أصدر رواية «*نساء أمام منظر طبيعي لنهر*» التي تروي عن «بون» وعن النساء ودورهن في السياسة الألمانية الغربية.

أما هذه الرواية (*الملاك الصامت*) فكانت في حكم المفقودة حيث إنها لم تنشر في ألمانيا ولأول مرة، إلا في عام 1992 أي بعد كتابتها بأكثر من أربعين عاماً. كان «هاينرش بول» قد كتبها بين عامي 1949، 1951

بعد عودته إلى «كولونيا» من جبهة القتال التي قضى فيها ست سنوات جندياً في مشاة ألمانيا وكان وصفه الصادق للمدينة المدمرة وآثار الحرب مرعباً، ولم يكن هناك ناشر يجرؤ على نشرها.

في شهر يناير عام 1950، لم يكن «هاينرش بول» قد نشر روايته الأولى بعد، وكان يمر بحالة من اليأس الشديد. في رسالة إلى صديقه «بول سكاف» كتب عن تلك الظروف المحبطة، وكيف أنه كان على وشك أن ينفض يده من الأمر كله...

(... لو شرحت لك حالتي في الشهور الثلاثة الأخيرة لما صدقت، وأعتقد أن الأمور لا يمكن أن تستمر على هذا النحو. لا زوجتي تستطيع أن تتحمل أكثر من ذلك ولا أنا. والروايات والقصص لا تساوي شيئاً أمام دمعة واحدة تذرفها، فإلى الآن لا أستطيع أن أكون كاتباً حراً يعيش من الكتابة، ويبدو أنني قد اخترت أمراً مستحيلاً. لابد من الاعتراف بأنني قد وصلت إلى طريق مسدود!).

كان في تلك الأثناء يضغط على نفسه لكي يكمل روايته حتى تدعم وضعه الأدبي عند القراء، ذلك الوضع الذي كان قد بدأ منذ روايته القصيرة «*جاء القطار في موعده*»، والتي كانت قد صدرت قبل ذلك بعام واحد، ولكن القسط الشهري الذي كان ناشر أعماله «فريدريك ميدلهادف» يدفعه له، لم يكن كافياً لإعالة أسرته. وكانت النتيجة أنه

توقف عن العمل في هذه الرواية أكثر من مرة ليكتب قصصاً قصيرة تحقق له دخلاً سريعاً.

نعرف الآن أنه كان على الطريق التي سوف توصله إلى نوبل بعد اثنين وعشرين عاماً، ولأن يصبح ضمير أمته ولم تكن رحلة سهلة.

في البداية حذروه ونبهوه إلى نتائجها المدمرة، رغم حرصه على أن يؤكد للناشرين أن العمل لا يصف الحرب ذاتها:

(الرواية تبدأ بيوم الاستسلام، ثم تعود تدريجياً إلى بداية الحرب. الفصل الثاني لا يوجد فيه أي شيء عن الحرب، لا شيء تقريباً عن المرحلة التالية لها... تلك الأرض الرحبة للفساد وللسوق السوداء. إنها تصور بؤس ناس المرحلة وصراعهم مع الجوع، كما تروي حكاية حب بأسلوب بسيط يتفق مع الطبيعة المقتضبة لجيل عاد إلى الوطن... فلم يجده).

ويبدو أن هذه النبذة التي قدمها «هاينرش بول» إلى الناشرين لم تبدد مخاوفهم، ولكنه واصل الكتابة وأرسل إليهم المخطوطة في أغسطس 1950 فلم ترق لهم الفكرة...

صحيح أنهم لم يعترضوا كتابة، ولكنهم طلبوا منه مراجعة النص وفعل. ولم يوافقوا عليه، مع أنه كان يكتب في نفس الوقت مجموعة قصص قصيرة «*أين كنت يا آدم*» (1951) تحمسوا لها وبدأوا في نشرها على الفور.

وصمت «هاينرش بول» بعد أن أصبح واضحاً له أن ملاكـه الصـامت لن يجد صوته قبل وقت طويل، فطلب منهم أن يعيدوا المخطوطة إليه. وفيما تلى ذلك من سنوات، كان «بـول» قد تحقق كاتباً من أعظم كتاب ألمانيا بعد الحرب، إلا أن الروايـة ظلـت دون نشـر طـوال حياتـه (21 ديسمبر 1917 ـ 16 يوليو 1985)، وكان قد قرر أن يستخدم الكثير من مادتها في قصص وروايات تالية.

ولذلك فإن القارئ الملم بعمله «*ولم يقل كلمة واحدة*» (1953) يلحـظ عناصر عدة من الحبكة الروائية وجوانب من الشخصيات وبعض أجـزاء من السرد، كما أنه استخدم الكثير من أفكارها الرئيسية وقام بتطويرهـا في أعمال أخرى له مثل «*المهرج*» (1963)، نشرت «*الملاك الصـامت*» في ألمانيا لأول مرة عام 1992 بمبادرة من مركز بحـوث «هـاينرش بـول» في مناسبة الذكرى الخامسة والسبعين لميلاده، وكانـت تلـك خطـوة بالغـة الأهمية لأن الرواية بمثابة مفتاح لجميع أعماله التي جاءت بعد ذلك.

ومثل «هاينرش بول» نفسه، يعود «هانز» بطل الرواية من الحرب إلى مدينته المدمرة جائعاً ضائعاً فلا يجد شيئاً..

لم يجد الشوارع ولا البيوت ولا الكنائس ولا المجتمع الـودود الـذي كان قد تركه خلفه قبل أن يذهب إلى الجبهة. وجد عالماً آخر تباع فيـه الهويات وتشترى، إلا أنه وجد بصيص أمل في بعض النفـوس الـتي لم تمت تماماً! وفي منزل مظلم يكتشف أن الحب كان قادراً على التبرعم.

أحداث الرواية قليلة، والأشخاص الذين نلتقيهم معظمهم من المرضى والضائعين، لدرجة أنهم يحسدون الموتى الذين استطاعوا الفرار من جحيم الحياة. فالموت طوق نجاة من حياة أكثر بؤساً. «هانز» الجندي العائد من الجبهة يبحث عن «إليزابيت» ليبلغها بإعدام زوجها، كما يبحث عن طعام ونقود وأوراق هوية ويتسول العون من آخرين لا يقلون عنه عوزاً. «ريجينا» تعيره معطفها وتسمح له بالإقامة معها وتبيع دمها للمستشفيات. كلاهما بائس يائس «هانز» فقد زوجته وهي فقدت طفلها!

ولكن الحب يجمع بينهما. وعندما يتماثل للشفاء من مرضه يحاول أن يدبر قوت يومهما، فلا يجد وسيلة سوى سرقة الفحم من القطارات. كان «هاينرش بول» قد صور تلك الحياة البائسة في كثير من كتاباته يقول: «لم يكن الشعب الألماني يملك شيئاً سوى حياته، وما تمتد إليه يده بالسرقة من فحم وخشب وكتب ومواد بناء في تلك السنوات، كان لكل إنسان الحق في أن يتهم غيره بالسرقة، وكان في ذلك الاتهام درجة من الصحة...».

وفي «*الملاك الصامت*» نلتقي بصراع من نوع آخر وحكايات صغيرة متداخلة، تصب جميعاً في مجرى الخراب الكبير. هناك خلاف عائلي على وصية زوج «إليزابيث» الذي أعدم في الحرب، يصور الكاتب من خلاله انتشار الفساد وعمقه على مستوى العائلة الواحدة والمجتمع بأكمله. ورغم إن الرواية تنتهي بجناز وبمشهد الملاك الرخامي المغطى بالتراب والطين بين المقابر، إلا إن هناك وميض أمل وتفاؤل من خلال طيف ابتسامة يلمحه الجندي الكسير على ملامح التمثال.

وإذا كان «هاينرش بول» قد وصف في روايته «*خبز الأعوام السابقة*» (1955) بطلاً تطارده ذكريات الحرب وأهوالها لدرجة أنه لا يمر على مخبز إلا ويشتري عدداً من الأرغفة تحسباً لمجاعة متوقعة يطارده شبحها، فهو في هذه الرواية يتخذ من الجوع تيمة أساسية... (لم يعد الأكل احتياجاً يبعث على السرور، كان قانوناً أسود يجبرهم على البلع بأية وسيلة وبأي ثمن لسد جوع لا يشبع، بل يتزايد).

واحتمال تسول الطعام والبحث عن الفحم للتدفئة يملأ «هانز» بالرعب كما يملأ الجميع والسيجارة الواحدة لها قيمتها...

عندما رفض الناشرون الألمان هذه الرواية في الخمسينيات كانت الأمة الألمانية قد بدأت تحركها إلى ما هو أبعد من الشعور بالذنب والجوع والفقر، واليوم أيضاً يقابلها القارئ هناك بفتور، والسبب في نظرة النقاد ليس تضاؤل شهرة «هاينرش بول» الذي يحتفظ له سجل الأدب العالمي بروائع كثيرة، ولكنه موضوع الرواية المؤرق الذي يدق باب الذاكرة بعنف من خلال استحضار مناخ اليأس المفترس واستعادة أيام تم اختزال الإنسان فيها إلى مجرد فم مفتوح وكف صفر من كل شيء... أي شيء!

المترجم

الفصل الأول

كـان وهـج الـنيران شمـالي المدينـة سـاطعاً بدرجـة كافيـة، تجعلـه يستطيع أن يميز الحروف المكتوبة فوق المدخل:

قرأ «.... سنت هاوس...» اتخـذ طريقـه أعلـى السـلم بحـذر، كـان الضوء يأتي من إحدى نوافذ البدروم على يمين السلم، تردد لحظة ليرى إن كان بوسعه أن يلمح شيئاً خلف الألواح الزجاجية القذرة، ثم واصل ببطء نحو ظله الذي كان يسبقه إلى أعلى على جدار كان قد بقي سليماً، كان الظل ينمو وينتشر شبحاً شاحباً تتدلى منـه ذراعـان... يتضـخم ثـم تتبدد رأسه في الفراغ أعلى الجدار. استدار يميناً وهو يطأ حطام الزجاج ثم أجفل: بدأ قلبه يخفق بشدة وشعر برجفـة قويـة، كـان شـخص مـا يقف في ناحية اليمين في فجوة مظلمة لا يتحرك! حاول أن يقول شـيئاً مثل «مرحباً» ولكن صوته كان محبوساً من الخوف كما كان هو مقبوضـاً

من شدة خفقان قلبه. الشبح الواقف في الظلام لم يتحرك، كان يمسك في يديه بشيء ما أشبه بالعصا، تقدم نحوه متردداً، وحتى بعد أن تحقق أنه تمثال كان قلبه مازال يخفق بشدة. اقترب أكثر وأكثر، كان تمثالاً من الحجر، خصلات شعره مدلاة، ويمسك في يده بزهرة زنبق. انحنى إلى الأمام حتى لامست ذقنه تقريباً صدر التمثال وراح يحدق في وجهه وقتاً طويلاً بفرح غريب.

إنه أول وجه يلتقيه في هذه المدينة، طلة حجرية لملاك يبتسم في رقة وألم، الوجه والشعر تغطيهما طبقة سميكة من التراب الرمادي، ومحجرا العينين تغطيهما طبقة سوداء رقيقة.

نفخها بحذر... وبحب.

والآن هو نفسه يبتسم، نظف الشكل البيضوي كله من الغبار، وفجأة وجد أن الابتسامة كانت مصنوعة من الجص... واصل النفخ، نظف الخصلات الجميلة والصدر والرداء المنسدل ونظف الزنبقة الجصية بنفحات رقيقة حذرة، كان الفرح الذي ملأه لرؤية ذلك الوجه الحجري المبتسم يتلاشى تدريجياً كلما لاحت له الألوان المزخرفة والطلاء الكالح لصناعة التقوى... وفجأة، هاهي ابتسامة الوجه ميتة تماماً مثل الشعر المنسدل. استدار ببطء إلى الصالة ليبحث عن الباب المؤدي إلى البدروم. لم يعد قلبه يخفق. يهب عليه من ناحية البدروم هواء ثقيل ذو رائحة حادة. هبط ببطء على السلالم الدقيقة وتحسس طريقه في الظلام الكالح.

كان الماء يقطر من مكان ما في السقف ممزوجاً بالتراب فيجعل الخطوة زلجة. واصل، من باب في الخلف يجيء ضوء... النور أخيراً!... على اليمين وفي هذا الجو شبه المظلم قرأ لافتة: «حجرة الأشعة ـ ممنوع الدخول» اقترب من الضوء الأصفر الضعيف المكبوت ومن حركته المتذبذبة أدرك أنه لابد أن يكون ضوء شمعة.

لا يسمع شيئاً. الجص المتساقط في كل مكان، آثار الطلاء والأنقاض التي تملأ الأرض دائماً بعد الغارات الجوية. الأبواب مفتوحة على مصاريعها... كان وهو يتحسس طريقه يحدق في الغرف المظلمة حيث يكشف الضوء المتراقص عن مقاعد وأرائك مبعثرة وخزانات محطمة تبرز من أحشائها الأشياء التي كانت بداخلها لكل شيء رائحة الدخان البارد والأنقاض المخلوطة بالماء... شعر بالغثيان.

كان الباب الذي ظهر منه الضوء مفتوحاً، وكانت راهبة في رداء أزرق داكن تقف بجوار شمعة طويلة موضوعة في حامل حديدي. كانت الراهبة تعد «السلاطة» في وعاء كبير من الصاج المطلي بالميناء، يد الراهبة العريضة تمزج الأوراق الخضراء برفق، ومن وقت لآخر كان بعضها يخرج إلى حافة الوعاء ويسقط على الأرض فتلتقطه بهدوء. وإلى جوار الطاولة البنية قدر كبير من الصفيح تتصاعد منه رائحة منفرة... رائحة الماء المغلي والبصل ومكعبات الحساء.

قال بصوت عالٍ: مساء الخير!

نظرت الراهبة حولها في فزع وظهر الخوف على وجهها المتورد، ردت في هدوء: يا إلهي! جندي!؟

كان السائل يقطر من يدها وعلى ذراعيها بعض الأوراق الخضراء الصغيرة... «يا إلهي! ماذا تريد؟ ما الأمر؟».

قال: أبحث عن شخص ما.

– هنا؟!

أومأ برأسه، يحدق الآن في اتجاه اليمين نحو خزانة مفتوحة منزوعة الباب بفعل الانفجار. رأى البقية الباقية من الباب الخشبي عالقة بالمفصلات وأرضية الغرفة مغطاة بأجزاء من البلاط الصلب والطلاء. في الخزانة خبز. عدة أرغفة كانت قد وضعت على عجل، ما لا يقل عن عشرة أرغفة من الخبز البني. سال لعابه في الحال، ازداد ريقه بشدة وهو يفكر: سوف آكل خبزاً... لايهم أي خبز... سأحصل على الخبز... فوق الرف ستارة خضراء بالية تغطي عدة أرغفة أخرى.

سألت الراهبة: عمّن تبحث إذن؟

التفت نحوها: «أبحث عن...» ولكن كان عليه أولاً أن يفتح الجيب العلوي لسترته الميدانية ويخرج منه ورقة صغيرة. تحسس عميقاً في جيبه، أخرج القصاصة، فتحها وقال: «جومبرتز»... السيدة جومبرتز، إليزابيث جومبرتز!

قالت الراهبة: جومبرتز!. جومبرتز! لا أعرف هذا الاسم!

نظر في عينيها، اضطرب وجهها العريض الشاحب الغبي، ارتعد جلد وجهها كما لو كان واسعاً عليه. نظرت إليه عيناها الدامعتان في خوف: يا إلهي!

الأمريكان هنا! هل أنت هارب؟ سوف يمسكون بك!

هز رأسه. نظر ناحية الخبز ثانية ثم سأل بهدوء: «هل يمكن أن تعرفي لي إن كانت هنا؟».

قالت «بالطبع». ألقت نظرة عجل هي الأخرى ناحية الخبز، مسحت يديها وبدأت تجففهما بمنشفة وهي تقول: «هل تريد... ربما... الإدارة....

لا أظن، يوجد هنا فقط خمس وعشرون حالة ليس بينها السيدة جومبرتز، لا أظن...».

– ولكن لا بد أنها كانت هنا!

التقطت الراهبة ساعة من على الطاولة، ساعة صغيرة مستديرة قديمة، ساعة يد فضية دون جلدة... «الساعة الآن» العاشرة ولابد أن أقوم بتقديم الطعام، تأخر الوقت، ثم أضافت معتذرة «هل تنتظر قليلاً، هل أنت جائع؟!».

– نعم.

نظرت في حيرة نحو وعاء السلاطة، وإلى رف الخبز. ثم إليه.

قال: خبز.

قالت: ولكن ليس لدي ما أقدمه لك مع الخبز.

ضحك! قالت «حقيقة، لا يوجد هنا أي شيء».

قال: يا إلهي! أنا أصدقك، أعرف ذلك. خبز فقط إن أمكن».

كان فمه قد امتلأ بسرعة بلعابه الدافئ، ازدرد ريقه ثانية.

قال بهدوء: خبز!

هبت إلى الرف، تناولت رغيفاً ووضعته على الطاولة ثم راحت تبحث عن سكين في أحد الأدراج..

قال: «هذا يكفي، استطيع أن أقطع بيدي، لا تقلقي، شكراً».

بسرعة، قطع لقمة كبيرة من الخبز، ذقنه ترتجف، ويشعر بقوة عضلات الفم والفكين، دفن أسنانه في الجزء الطري من الرغيف وبدأ في الأكل. الرغيف قديم. عمره أربعة أو خمسة أيام على الأقل، خبز بني اللون عليه علامة ورقية لأحد المخابز. ولكن طعمه حلو، راح يقضم ويقضم بعمق حتى القشرة البنية كان يأكلها أيضاً، قطع مرة أخرى. يأكل باليمنى ويقبض على الرغيف باليسرى كما لو أن أحداً سيجيء ليأخذه منه، رأى يده على الخبز نحيلة وقذرة. رأى جرحاً عميقاً يلوثه التراب والجرب. نظر حوله. الغرفة صغيرة، حول الجدران خزائن من الصاج كل أبوابها منزوعة تقريباً. تظهر من إحداها أغطية فراش بيضاء، وتحت أريكة جلدية في الركن تبدو بعض الأدوات الطبية، وبالقرب من النافذة موقد قديم في حالة سيئة أنبوبته موجهة إلى الخارج

من خلال لوح من الزجاج المكسور. حول الموقد مواد الإشعال مبعثرة. كومة من الفحم وإلى جانب الخزانة الصغيرة المعلقة على الحائط، كان يوجد صليب عليه تمثال للمسيح.

جلس على صندوق وأخذ قطعة أخرى من الخبز، مازال طعمه حلواً، كان يقضم أولاً في الجزء الطري ثم يتحسس ملمسه اللذيذ في فمه كله بينما الأسنان تحفر وتتوغل في الرغيف. فجأة، شعر بأن هناك شخصاً ما يراقبه. فنظر. وفي المدخل كانت تقف راهبة فارغة الطول، وجهها أبيض، ضيق، شفتاها شاحبتان، عيناها الواسعتان كلهما برود وحزن!

قال: مساء الخير!

أومأت برأسها فقط. دخلت. لاحظ أنها كانت تحمل سجلاً كبيراً لونه أسود تحت إبطها. ذهبت أولاً ناحية الشمعة المنتصبة بين أنابيب الاختبار على الطاولة البيضاء، هذبت ذبالتها بمقص صغير فصغر حجمها وزاد وهجها. بينما سقطت في الظلام أجزاء أخرى من الغرفة. اقتربت منه قائلة بهدوء شديد: «تزحزح قليلاً من فضلك» وجلست إلى جواره على الصندوق.

شم رائحة الصابون المعطر من ياقتها الزرقاء، أخرجت كيس نظارتها الطبية من جيبها وفتحت السجل:

– جومبرتز، أليس كذلك؟

اوما براسه وهو يزدرد آخر قطعة خبز.

قالت بهدوء: ليست هنا، أعرف، خرجت منذ أيام قليلة لأننا كنا نحتاج إلى السرير. جميع الحالات الداخلية كان لابد أن تعود إلى المنازل، ومع ذلك سوف أرى...

سأل بهدوء: هل تعرفينها؟

– نعم.

نقلت عينيها من السجل إليه، عينان باردتان، طيبتان!

– لست زوجها، أليس كذلك؟

انتحت جانباً مرة أخرى وراحت تقلب صفحات السجل المزدحم بالكتابة.

– كانت تعاني من آلام في المعدة، أليس كذلك؟

– لا أعرف!

– يا إلهي! زوجها كان هنا منذ أيام قليلة. وهو جندي مثلك.

نظرت إلى علامات الرتبة العسكرية على كتفه وتوقفت عن تقليب الصفحات وقد وصلت إلى الصفحة الأخيرة.

– هل كنت تخدم معه؟

– نعم.

– زارها وكان يجلس معها على السرير، يا إلهي!

يبدو ذلك وكأنه منذ زمن بعيد، رغم أنه كان منذ أيام قليلة، ما هو تاريخ اليوم؟!

قال الثامن. الثامن من مايو.

– كم يبدو ذلك بعيداً جداً!!

الآن يمر إصبعها الطويل الشاحب على الأسماء في الصفحة الأخيرة من الأسفل إلى الأعلى. ثم قالت:

– جومبرتز، أليزابيت جومبرتز. خرجت في السادس، أول أمس.

– هل يمكن أن تعطيني عنوانها من فضلك؟

– روبنستراس، 8 روبنستراس.

ثم قامت، نظرت إليه وحملت السجل تحت ذراعها.

قالت: ما الأمر إذن؟ ماذا حدث لزوجها.

– مات!

– هل قتل في الحرب؟

– أعدم!

«يا إلهي»، استندت على الطاولة نظرت إلى الخبز المتبقي وقالت:

– احذر، هناك دوريات في كل أنحاء المدينة، وهم قساة لا يعرفون الرحمة!.

قال بصوت مبحوح: شكراً.

سارت نحو الباب ببطء، ثم التفتت للمرة الأخيرة وسألته:

– هل أنت من هنا؟ هل تعرف الطريق؟

– نعم.

– حظاً سعيداً... قبل أن تستدير همهمت مرة أخرى: يا إلهي!

– شكراً، شكراً جزيلاً!

تناول لقمة أخرى وبدأ يأكل ثانية، الآن يأكل ببطه شديد. بهدوء شديد. ولكن الخبز كما هو... لذ

كانت الذبالة قد صنعت حفرة وسط حواف الشمعة واستطالت وأصبح الضوء أكثر صفرة...

يسمع الآن وقع أقدام في الصالة، المشية المتثاقلة للراهبة التي كانت قد خرجت بوعاء السلاطة، ولكن خلفها خطوات عجولة، وقع أقدام رجل. عادت الراهبة مع الطبيب، وضعت الوعاء الفارغ تحت الطاولة وبدأت تقلب نار الموقد.

قال الطبيب: انتهت الحرب يا رجل، انتهت بالهزيمة، اخلع هذه المزق، وألق بهذه اللعب.

كان الطبيب شاباً في الخامسة والثلاثين تقريباً، له وجه عريض أحمر، متغضن بطريقة غريبة وكأنه قد نام على الجنب الخطأ. شم «هانز» أن الطبيب كان يدخن. والآن يراه وهو يمسك سيجارة مشتعلة في تجويف راحة يده خلف ظهره.

قال هانز: مع سيجارة؟

قال الطبيب: أوه!

ولكنه أخرج علبة من جيب البالطو لمح «هانز» فيها سيجارتين ونصف سيجارة.

أعطاه الطبيب نصف السيجارة قائلاً: احذر! احذر أن يُمسك بك يا رجل...

كان الطبيب الآن يمسك بسيجارته من العقب، لاحظ «هانز» أصابعه الصفراء السميكة والأظافر المشققة.

– شكراً، شكراً جزيلاً.

تناول الطبيب بعض الأقراص من الدرج ووضع مشرطاً ومقصاً في جيب سترته وترك الغرفة. لاحظ «هانز» ملامحه من جانب وجهه المسطح. وأنفه الأفطس ثم قال وهو يقف إلى جواره: «لحظة من فضلك».

كان الطبيب صامتاً «أريد أوراقاً».

قال الطبيب: أتمزح يا رجل؟

– أريد أوراقاً سليمة... لابد أن هناك أوراقاً في مكان ما هنا، يفضل أن تكون أوراق شخص ميت، تصرف!

– لاشك أنك مجنون!

– لا، أبداً، لا أريد أن أذهب إلى السجن أنا أعيش هنا ولديّ الكثير لأفعله، لأبحث عنه، ساعدني!

سكت «هانز». كان يرى وجه الطبيب بصعوبة، ولكنه في الظلام الرطب العفن كان يشعر بنفس الرجل الآخر دافئاً ثم خشخش شيء ما في الظلام كصوت طلاء يقع أو أنقاض تتهاوى.

سأله الطبيب بصوت خفيض: هل معك نقود؟

– لا ليس بعد، ولكن بمجرد أن، بمجرد أن أصل إلى البيت...

– هذه الأمور مكلفة.

– أعرف.

سكت الطبيب مرة أخرى. لفظ عقب السيجارة من بين شفتيه رأى «هانز» العقب المتوهج يرتطم بالحائط، وشرر من ضوئه يكشف عن مساحة قبيحة من الطوب العاري على الحائط، ثم يقع في بركة ماء صغيرة محدثاً هسيساً، أحس بيد الطبيب تمسك بذراعه بشدة وبصوت الرجل الآخر يقول مبحوحاً:

– انتظر هنا. لدي ما يجب أن أفعله...

ثم أزاحه جانباً وجذب أحد الأبواب ودفع «هانز» إلى الداخل وانصرف مسرعاً.

كان يقف في غرفة تغيير الملابس: تحسس حوله في الظلام على المقعد الخشبي الضيق، جلس، مرر يده ببطء على الألواح الخشبية التي كانت تنبعث منها رائحة العفن. كل شيء هنا يبدو سليماً. فجأة وجد نفسه يمسك بشيء ذي ملمس حريري. قماش. قطعة ملابس وقف،

بحث عن المشجب وأنزله. معطف مطر خفيف ناعم! تحسس الأزرار الكبيرة والحزام المعلق بمفرده والإبزيم الذي كان يرتطم برجله. رائحة نسائية. وآثار قليلة من أحمر الشفاه. أمسك المعطف بثبات وتركه ينسدل إلى الأسف متحسساً الجيوب. أحدها خال، خرجت يده من البطانة إلى الهواء. في الجيب اليمين خشخشت ورقة وعندما تحسس عميقاً وجد شيئاً معدنياً مسطحاً. أخرجه ثم علق المعطف مرة أخرى في الظلام.

كانت علبة سجائر، بحث عن قفلها وفتحها، تحسس ما بها من سجائر بعناية وعدها بأطراف أصابعه، خمس سجائر، أخذ اثنتين، أغلق العلبة ووضعها في جيب المعطف. فجأة شعر بالإجهاد الشديد، جعله نصف السيجارة يشعر برغبة في النوم، وضع السيجارتين في الجيب العلوي مع الورقة الصغيرة، كوم نفسه على الأرض، اتكأ على الحائط ومدد ساقيه لأبعد ما يستطيع.

استيقظ لأنه كان يشعر بالبرد، كانت رقبته متصلبة وتيار شديد من الهواء يمر بين ساقيه، كان الهواء الثلجي يضرب ظهره ويصل إلى رقبته من الشق أسفل الباب. وقف، فتح الباب، كل شيء مظلم، مازالت الرائحة في الصالة عطنة ورطبة، رائحة الدخان البارد والأنقاض الرطبة تملأ الجو وتجعل الهواء ثقيلاً. سعل، لا يعرف الوقت، كل ما يتذكره هو أن الطبيب قال إنه سوف يعود. يبدو أن الراهبات قد

انصرفن وجد الباب مغلقاً. عاد إلى غرفة تغيير الملابس وأوغل ، يديه في الجيوب وجد منديلاً في بطانة الناحية اليمنى فاستخدمه ليسد المزق في الناحية اليسرى دفع بالورقة المخشخشة إلى أسفل. ثبت إبزيم الحزام الخشبي، أغلق باب الغرفة وراح يتحسس طريقه أعلى السلم.

في الطابق العلوي كان كل شيء هادئاً ومظلماً كذلك، باستثناء ذلك اللون الأزرق الشاحب لون السحب في المساحات التي كان يمكن أن يرى السماء منها.

الجناح الأيسر كله من المبنى الضخم كان مسدوداً بقطع كبيرة من الحجارة، ومن خلال الثغرات بينها كان يرى الغرف الكئيبة المدمرة ويشم رائحة الأنقاض العفنة، استدار يميناً نحو صالة مفتوحة وسمع أصوات أناس يتنفسون، كانت أبواب قليلة مفتوحة في الظلام والغرف تبدو مسكونة، رائحة عرق نتن وبول وأغطية فراش... الرائحة كلها نفاذة وكريهة وكأنها امتصت كل الهواء، الآن يسمع أصوات أناس يتوجعون بوهن شديد، وفي ركن من الغرفة لمح وهج سيجارة. استدار إلى اليسار، وهج الضوء يسقط على حائط كبير مائل للصفرة، وورق الحائط أسود بفعل اللهب... وإلى اليمين بقايا ومخلفات غرفة العمليات: علب زجاجية مبعثرة، أدوات ملقاة هنا وهناك، طاولة عمليات مبطنة تغطي الأنقاض نصفها، مصباح زجاجي أبيض يتأرجح في الظلام، سليم ولكنه يتحرك مثل حشرة كبيرة الحجم تهدد بالهبوط

في أي لحظة... اقترب قليلاً وأخذ يحدق من خلال صدع. المصباح معلق بسلك دقيق أسود يتهادى ببطء، الضوء في آخر الصالة يتسلل من خلال نافذة عليها ألواح كثيرة تغطيها ملاءة سرير مملوءة بالثقوب، يخترقها ضوء الشمعة المتراقص فتنعكس بقع الضوء على الحائط المقابل مثل طرطشة الزبد. حدق: بالقرب من شمعدان كبير به شمعتان مشتعلتان توجد نقالة تقف مثل النعش، وعليها ما يبدو أنه سيدة عجوز، كان يرى فقط رأسها مثل نسيج فضي، وكل ما يراه من الطبيب حاجبه الكثيف الأحمر فوق القناع ويداه وهما ترتفعان وتنخفضان. لا صوت عند حافة النقالة. كانت تقف الراهبة ذات الوجه الأبيض التي كانت قد جلست إلى جواره في الدور الأول ومعها السجل الأسود. كانت تناول الطبيب قطع القطن...

كل ذلك بتعبيرات صامتة لامبالية، رداؤها الأبيض يفيض عليها فيجعلها مثل فراشة هائلة، وظل ياقتها يهتز واضحاً على الحائط، كانت هناك راهبة أخرى ظهرها إليه تحرك الشمع حسب إشارات الطبيب المقتضبة، القلقة. انحنى الطبيب أكثر من اللازم على الجسم المسجى أمامه، وكأنه يركع، كانت رأسه فقط ترتفع من وقت إلى آخر عندما يطلب أن تناوله المرضة شيئاً... كما كان صدره العريض يرتفع. صوت شيء ما يسقط في دلو خلفه. كان قفازه المطاطي الأبيض ملطخاً بالدم، خلعه، ألقى به على الطاولة خلفه وهز كتفيه بلا مبالاة، ألقت

الراهبة الواقفة وراءه بملاءة على الجسد ودفعت بالنقالة بعيداً. «هانز» يرى الوجه الآن بوضوح شديد... وجه أبيض بلون الطباشير.

***

خطا إلى الخلف ببطء، تيارات الهواء تتدافع من كل اتجاه، ضوء السيجارة ما يزال كما هو في عنبر المرضى بين الأعمدة، الهواء رطب ولزج، تحسس طريقه بين الأسرة...

ها هو الآن يرى النوافذ مغطاة ببطاطين ثقيلة، الأسرة مكدسة، الأدوات مبعثرة في الممرات الضيقة، والسيجارة في الركن ما زالت تضيء، الآن يستطيع أن يميز الأشكال... رأى طاولة كبيرة في وسط الغرفة ومساحات عارية على الجدران بعد أن سقط عنها الطلاء، وفي ضوء السيجارة الضعيف استطاع أن يكتشف الوجه النحيل لسيدة شابة في وشاح به خطوط سوداء وصفراء.

الوجه شاحب ولكنه يلمع في الظلام، اقترب من السرير قائلاً: معك كبريت؟

رأى يداً في كم خشن أزرق، اقتربت من سيجارته فاقترب منها، لم تقل شيئاً، الآن يرى عينيها عن قرب، يملأهما الموت والكآبة، لا يلمح فيهما أي شيء. حتى ضوء السيجارة التي كانت تحتهما تماماً.

قال بهدوء: شكراً. واستدار ليذهب، ولكنها، فجأة، وضعت يدها على ذراعه، شعر بلمستها دافئة وجافة «ماء»... ثم أضافت بصوت مبحوح «ناولني بعض الماء، أمامك هناك..» أشارت السيجارة نحو إبريق في مكان ما على الطاولة، إبريق قهوة بني اللون، بلا غطاء وكان ثقيلاً.

كانت سيجارتها ملقاة على أرضية الغرفة، أطفأها بقدمه وسألها بهدوء: فنجان أو...».

– ها هو.

تناول الفنجان وضعه تحت فتحة الإبريق وملأه. أمسكت به من يده، شعر بشيء منفر في حركتها المفاجئة وفي الطريقة التي جذبت بها الفنجان وسمع في الظلام أصوات أكل وشرب.

قالت: مرة أخرى!

ملأ لها الفنجان ثانية، ومرة أخرى جذبته من يده بجشع وبلا تحفظ وشعر بأن الإبريق أصبح خفيفاً في يده، وفجأة سقط رأسها على جنب وانزلق الوشاح وظهرت من تحته ضفيرة كبيرة. أخذ الفنجان من السرير وملأه لنفسه، الماء طعمه كريه، وفاتر، مضاف إليه الكلور، سمع المرأة تصدر صفيراً خفيفاً وهي نائمة فخرج من الغرفة ببطء شديد.

في غرفة تغيير الملابس في الدور الأول كان الجو أكثر دفئاً، سببت له السيجارة دواراً خفيفاً وشعوراً بالغثيان، جثم على الأرض ضغط ما بقي من سيجارته في الجدار ومدد ساقيه وراح في النوم.

بعد وقت قصير أيقظته ركلة الطبيب على الناحية الأخرى من الباب. «تعال يا رجل، حالاً سيطلع النهار» قفز ليفتح الباب.

- أخرج. لا يوجد مقبض!

فتح الغرفة التي كان يوجد فيها الخبز، أشعل شمعة وناداه «تعال!» اقترب «هانز» من الطبيب.

قال الطبيب: يا إلهي. كم تبدو وسيماً!. من أين لك هذا؟.

قال هانز: كان معلقاً في الغرفة، سوف أعيده عندما... كان في غرفة الأشعة».

وأخرج الورقة المكرمشة من جيبه. كانت رسالة.

فتحها وقرأ بصوت عال: «ريجينا أونجز» (ماركيش ستراس) رقم 17».

قال الطبيب: هكذا!

- سوف أعيده بالتأكيد، فقط..

- احتفظ به... احتفظ به، تعال!

سار «هانز» بهدوء حول الطاولة، اصطدم بوعاء الحساء، ثم توجه نحو طاولة أصغر. أخرج الطبيب ورقة من جيبه.

أمسك بها تحت ضوء الشمعة وقال:

– أعتقد أن هذا هو ما تبحث عنه. ما تريده أوراقاً سليمة تماماً».

وجهه المبتسم تشوبه حمرة وإرهاق، عيناه كئيبتان، وحول فمه تجاعيد غريبة، صفراء توحي بالتعب. شعره الأحمر يغطي رأسه متفرقاً مثل زغب كتكوت. قال في وهن: العمر 25 سنة، غير لائق للخدمة بسبب مرض خطير في الرئة. واسمك إيريك كلير».

مد «هانز» يده نحو الورقة الرمادية المطبقة، ولكن يد الطبيب العريضة غطتها وهو يبتسم.

قال هانز بهدوء: سوف أحضر النقود.

– كم؟

بمجرد أن فتح فمه ليتكلم ارتعدت شفتاه. كأن أعصاب فمه قد أصابها تلف مفاجئ: كم تريد؟

– اثنان.

– مائتان؟

– «مائتان؟ كررها الطبيب وراءه باستخفاف: السيجارة الواحدة ثمنها الآن عشرة.

– ألفان إذن؟

– نعم... متى؟

– ربما غداً ربما بعد غد، ربما اليوم. لا أعرف. بمجرد أن...

وقف الطبيب فجأة وفتح الشباك، ترك أنبوبة الموقد تهتز، تدفق الغبار من خلال قضبان شباك البدروم، والآن تبدو السماء رمادية داكنة!

استدار الطبيب، أخذ الأوراق من على الطاولة وحدق في «هانز» طويلاً. عيناه متعبتان. قلقتان، فيهما حزن عميق، وظل من شك.

قال: ربما أسأت فهمي، أنا لا أعمل في السوق السوداء ولا أتاجر بأوراق الموتى. ولكني أريدها ثانية، هل تفهم؟ إنها لا تخصني، هي من هذه الملفات وهم يفتشون على تلك الأشياء. كل ما أريده هو أن أساعدك، سأعيرها لك ولكني أريد ضماناً.

- لا أملك شيئاً!

- هذه العلامة المعدنية التي على صدرك، هل تخصك؟

- ليست لي.

- والبذلة؟

- ليست بذلتي، إنها بذلة رجل ميت ولابد من توصيلها لزوجته، هل يمكن... ثم تردد.

- ماذا؟ سأله الطبيب

- هل تأتمنني؟ سوف أحصل على أوراق أخرى خلال أيام قليلة على الأكثر.

حدق فيه الطبيب طويلاً مرة أخرى، والآن في الخارج، في هدوء المدينة التي كانت تحتضن عدة كنائس، يتردد صوت ناقوس صغير يدق من بعيد.

قال الطبيب: السادسة إلا الربع.

ثم دفع بالأوراق إليه وهو يقول: اذهب. ولا تخذلني!

– لن يحدث أبداً. شكراً، شكراً جزيلاً. إلى اللقاء.

الفصل الثاني

استطاع أن يجد المنطقة التي يوجد فيها المبنى دون صعوبة، ربما دله عليها عدد الخطوات التي قطعها من مفترق، أو شيء ما في سلسلة جذوع الأشجار التي كانت تشكل ذات يوم شارعاً طويلاً جميلاً. على أية حال، شيء ما جعله يقف فجأة وينظر جهة اليسار كان المبنى هناك. تعرف على بقايا بئر السلم، شق طريقه نحوه عبر الأنقاض: ها هو في منزله.

الباب الخارجي غير موجود، جزء منه ما يزال معلقاً بالمفصلات بعد القصف، ركام وبقايا حديد وخشب، جزء من السلم المؤدي إلى العلوي ما يزال هناك، ومن السقف تتدلى عروق وألواح من الخشب بعد خطوات فوق كومة الأنقاض وفي نهاية صالة المدخل أزال الركام من فوق درجة

السلم، ربما كانت آخر ما تبقى منه، نظفها وجلس عليها، لها رائحة الرمل والطين الجاف. ولكن لا أثر لحريق في أي مكان.

كان المبنى جميلاً وفخماً وكان له حارس يعيش في الدور الأرضي.

نظر إلى اليمين حيث كان يوجد باب الحارس فرأى كومة هائلة من الأنقاض، وبقايا ورق حائط ممزق وأجزاء وأشلاء أثاث. من مكان ما كانت تبرز قائمة بيانو مدفونة في التراب ويبدو أن سقف المدخل كان قد انهار. وقف مرة أخرى ونبش في مكان معين من كوم الأنقاض حتى لمس ورق الحائط البني وراح يحك في مكان أصابعه حتى ظهرت أمامه اللافتة التي تحمل الاسم. لوحة من الصاج المغطى بالميناء الأبيض عليها حروف سوداء «شنيب بلنهر ـ حارس».

هز رأسه، عاد ببطء وجلس، أخرج علبة السجائر من جيبه، فتحها وأخذ سيجارة، تذكر أن ليس معه ما يشعلها به.

عاد مرة أخرى ناحية المدخل وانتظر، لا يرى أحداً في الخارج، الجو هادئ وبارد، من بعيد يأتي صياح ديك وعلى مسافة أبعد ـ حيث الراين تقريباً ـ كان يسمع أصوات معدات ثقيلة تتحرك... دبابات ربما!

في الأيام الخوالي كانت هذه المنطقة تعج بالبشر وبالحياة في أي وقت من أوقات النهار. وحتى وقت متأخر من الليل.

الآن يرى فاراً يتسلل من كومة الأنقاض القريب، يتقدم ببطء ويتشمم طريقه نحو الشارع، وعندما انزلق من على لوح رخامي أملس ذي زاوية حادة صرخ بصوت عال، ثم عدل نفسه وواصل تسلله... بعد ذلك سمعه ينبش في عربة مقلوبة في الشارع كان الحديد يبرز من أحشائها نتيجة الانفجار... وكان هو قد نسي أن هناك سيجارة بين شفتيه وأنه كان ينتظر من يشعلها له.

***

في الزمن الماضي، وعندما كان المبنى لا يزال في مكانه، كانت قد وصلت بطاقة بريدية ذات صباح وكان نائماً في أول يوم من أيام إجازته. يومها ظنت أمه أنها بطاقة لا قيمة لها.

كان ساعي البريد قد سلمها حزمة من الرسائل: الجريدة، بعض الكتالوجات، رسالة، كشف حساب المعاش، وتَذكُر أنها كانت قد وقعت على إيصال باستلام شيء ما.

على أية حال كان من الصعب أن تتبين الأمر في عتمة المدخل كما كانت الصالة مظلمة كذلك إلا من ضوء ضعيف غير مباشر تسلل من الزجاج الأخضر فوق الباب.

قلبت أمه في كومة البريد بسرعة وألقت بالبطاقة على الطاولة في الصالة قبل أن تدخل إلى المطبخ. كانت بطاقة عادية مطبوعة ظنتها غير ذات أهمية بالمرة.

كان قد نام متأخراً في ذلك اليوم. أول يوم في حياته إن كان يمكن أن تسمى حياة. حتى ذلك الحين كان كل شيء هو: المدرسة، الفقر، التدريب، المتاعب، وفي اليوم السابق كان قد نجح في امتحان التلمذة الصناعية وبدأ الإجازة.

في الثامنة والنصف من ذلك الصباح كان الجو قد أصبح شديد الحرارة والرطوبة. الصيف. ذروة الصيف. وكانت أمه قد أغلقت مصاريع النوافذ. والآن بعد أن دخلت إلى المطبخ بالبريد أشعلت الموقد لتغلي الماء.

كانت المائدة معدة. كل شيء نظيف وهادئ، ومسالم. جلست وبدأت تقلب في البريد كانت تسمع صوت المطارق الخفيف والجلبة البعيدة لورشة النجارة المقامة في ملحق البدروم، ومن أمام الباب كانت تأتي الهمهمة الرتيبة لحركة المرور في الشارع.

كانت الكتالوجات من محل نبيذ يزودهم بالمشروبات من وقت لآخر عندما كان والده على قيد الحياة، ألقت بها دون أن تقرأها في صندوق كبير تحت الموقد، تحتفظ فيه صيفاً بالأوراق المهملة والخشب المتبقي لاستخدامه في الشتاء.

وعندما تفحصت كشف حساب المعاش تذكرت البطاقة التي كانت قد تركتها على الطاولة في الصالة، وفكرت للحظة في أن تقوم وتحضرها لتلقي بها في الصندوق. كانت لا تحب البطاقات المطبوعة، الجاهزة، ولكنها تنهدت وهي تنظر إلى كشف الحساب. حساب معقد لم تفهم منه شيئاً سوى الرقم الأخير. الرقم المطبوع باللون الأحمر، ولاحظت أنه قد نقص مرة أخرى. وقفت لتصب القهوة. وضعت كشف الحساب بجوار الجريدة المكومة، صبت لنفسها فنجاناً كاملاً وفتحت المظروف بظفر إبهامها. الرسالة من شقيقها «إيدي» كتب «إيدي» أنه بعد سنوات طويلة من الاختبار، طويلة جداً، تمت ترقيته أخيراً إلى وظيفة وكيل مدرسة. ورغم ذلك لم تكن رسالته تبعث على البهجة. فالترقية جاءت على حساب نقله إلى مكان بعيد، كئيب، وكان سئماً بالفعل من كل شيء، وأخبرها أنها بالتأكيد تعرف السبب. وكانت تعرف السبب بالفعل. ولكي يزداد الطين بلة، كان أطفاله قد مروا بثلاث نوبات من المرض على التوالي: التهاب في البلعوم، جدري، حصبة. كان «إيدي» مرهقاً تماماً، ثم جاءت ربكة النقل الذي لم يحسن من وضعه المالي كثيراً. نقله من أفضل منطقة إلى أسوأ منطقة ستعرف السبب، وعرفت السبب.

نحّت هذا الخطاب جانباً أيضاً، ترددت لحظة، ألقت بكشف الحساب في الصندوق ثم وضعت الخطاب في أحد الأدراج. تذكرت

البطاقة البريدية مرة أخرى للحظة عابرة، ولكنها حينذاك كانت قد صبت لنفسها فنجاناً من القهوة وأعدت بعض الخبز والزبد وفتحت الجريدة. قرأت العناوين الرئيسية فقط.

لم تكن مثل معظم الناس، لا تتكلم إلا عن الحرب والثأر، الشيء الوحيد الذي يمكن أن تقرأ عنه في الصفحة الأولى الآن ومنذ عدة أسابيع هو انفجارات الغضب والثورة وحكايات اللاجئين الهاربين من القتال في المناطق البولندية بحثاً عن ملجأ في الرايخ.

على الصفحة الثانية قرأت أن حصة الزبد قد خفضت وأن حصة البيض سوف تستمر. لم تفهم شيئاً، كما لم تفهم المقال الذي قد بدأته ومرت عليه بسرعة، والذي كان يقول إن أحداً لا يمكن أن يبيع حريته من أجل الكاكاو والقهوة. ثم نحت الجريدة جانباً، انتهت من شرب فنجان القهوة واستعدت للخروج من أجل التسوق.

ضوء ساطع يأتي من خلال المصاريع، والشمس ترسم أشكالاً وعلامات على الحائط، وعندما رأت البطاقة البريدية البيضاء على الطاولة في الصالة تذكرت أنه كان عليها أن تلقي بها في الصندوق، ولكنها الآن تمسك بشنطة التسوق في يدها والمفتاح في الباب بالفعل فنزلت على السلم.

***

عندما عادت كان لا يزال نائماً، وكانت البطاقة البيضاء هناك أيضاً، وضعت الشنطة على الطاولة وتناولت البطاقة، الآن وبرغم الظلام ترى العلامات الحمراء الغريبة عليها. بطاقة بيضاء بمثلث أحمر وفي وسط المثلث حرف R مكتوب بخط سميك، ويشبه العنكبوت.

انتابها شعور بالقلق، تركت البطاقة تسقط من يدها على الطاولة، شيء غريب، لم تكن تعرف أن البطاقات يمكن أن ترسل بالبريد المسجل، بطاقة بريدية مسجلة، يبدو الأمر غريباً. خافت منها، تناولت شنطة التسوق بسرعة ودخلت إلى المطبخ، وأخذت تفكر ربما كانت شهادة من غرفة التجارة تقول إنه قد نجح في الامتحان، أو لعله أمر هام يستحق أن يرسل مسجلاً. ليس فضولاً. ولكنه القلق!. وضعت الوعاء على الطاولة وفتحت الشباك حيث كان الجو قد أظلم فجأة في الخارج، رأت قطرات المطر الأولى تسقط في الفناء، ثقيلة، قطرات مستديرة تنزل ببطء، بقع حبر سميكة على الإسفلت. كان النجارون يقفون في ملابس العمل الزرقاء في الفناء أمام المحل، فألقوا بسرعة بقماش من الخيش على إطار شباك كبير. بدأت قطرات المطر تنزل بسرعة ويقوى صوتها، سمعت الرجال يضحكون قبل أن يختفوا خلف الألواح المغطاة بالتراب في ورشة البدروم.

أزاحت المفرش من على الطاولة وتناولت سكين المطبخ من الدرج، دفعت بالوعاء في مكان بعيد وبدأت في تجهيز القرنبيط بيد مرتعشة.

وجه حرف الـ R القبيح داخل المثلث أحدث بداخلها فزعاً، كان يتحول بالتدريج إلى مغص شديد وشعور بالغثيان، بدأ رأسها يدور وكان لابد أن تحاول أن تتماسك، ثم بدأت تصلي، كانت تلجأ للصلاة كلما خافت، وفعلت! عبرت خيالها سلسلة متقطعة من الصور المرتبكة، العشوائية، زوجها الذي كان قد مات منذ ست سنوات يقف في النافذة يلوي قسمات وجهه مع انتشار الجنود في الشوارع، فكرت في ولادة ابنها أثناء الحرب العظمى، ذلك الولد النحيل المهزول الذي لم يشتد عوده أبداً. ثم سمعته وهو يدخل إلى الحمام، الرجفة التي تشعر بها في صدرها ما تزال كما هي، وطأة الألم والشك والقلق والخوف، ورغبة في الصراخ كان عليها أن تكتمها!

***

عندما خرج من الحمام كانت أمه تعد المائدة في غرفة المعيشة، الغرفة نظيفة ومرتبة وعلى المائدة زهور إلى جانب الجبن والزبد والنقانق وإبريق القهوة البني ذي الغطاء الأصفر، وعلبة الحليب، كما رأى علبة سجائر كبيرة من الصفيح. قَبّل أمه وأحس بها ترتعد، نظر إليها في دهشة مخنوقة وفجأة أجهشت بالبكاء.

ربما كانت تبكي من الفرح. أمسكت بيده بشدة وقالت وهي تبكي «لا تغضب، حاولت أن أجعل كل شيء جميلاً» أشارت إلى الطاولة، تبكي

بشدة، وتنتحب، كان يرى وجهها العريض... الجميل غارقاً في الدموع، لم يعرف كيف يتصرف، تلعثم، «يا إلهي! كل شيء جميل يا أمي».

«نعم». قال ثانية. نظرت إليه وهي تفتش في ملامح وجهه وتحاول أن تبتسم، «فعلاً» قال قبل أن يتجه إلى غرفة النوم. ارتدى قميصاً نظيفاً بسرعة، وربطة عنق حمراء وخرج على عجل. أمه مازالت جالسة، كانت قد خلعت مريلة المطبخ وأحضرت فنجان قهوتها وكانت تبتسم له. جلس وهو يقول: لقد نمت جيداً!

كانت تراه يبدو أفضل من ذي قبل، رفعت غطاء إبريق القهوة وصبت له فنجاناً وأضافت بعض الحليب من العلبة.

– «هل قرأت طويلاً؟».

قال وهو يبتسم: لا، أبداً، كنت متعباً أمس، في غاية التعب. تناول سيجارة من العلبة الصفيح أشعلها وبدأ يقلب قهوته ببطء، نظر في عيني أمه وهو يقول: كل شيء جميل يا أمي.

قالت دون أن تغير تعبيرها: توجد بعض الخطابات.

لمح زوايا فمها ترتعد، عضت شفتها، لم تستطع أن تتكلم، تنتحب مرة أخرى انتحابة عميقة جافة.. أدرك فجأة أن شيئاً ما لابد أن يكون قد حدث أو على وشك الحدوث. كان يعرف. البريد هو السبب، لابد أن يكون شيئاً يتعلق بالبريد. أطرق. حرك القهوة. مج عميقاً من سيجارته، كان عليه أن يعطيها وقتاً. لم تكن ترغب في البكاء ولكن كان

لديها ما تود أن تقوله، وكان يجب أن تأخذ وقتها حتى تفيق تماماً من نحيبها وتستطيع أن تتكلم مرة أخرى. شيء ما له علاقة بالبريد. لن ينسى تلك الانتحابة طوال حياته، انتحابة تحتوي على كل شيء، كل الرعب الذي لم يكن أحدهما قد عرف مثله. انتحابة تقطع كالسكين. انتحبت مرة واحدة، انتحابة عميقة طويلة، وهو مطرق يحدق في سطح فنجان القهوة الذي ذاب فيه الحليب السائل فأحال لونه بنياً خفيفاً. رأى زهرة السيجارة تهتز، لونها رمادي فضي. وفي النهاية أحس أنه يمكن أن يرفع بصره.

قالت بهدوء: «نعم، خالك «إيدي» كتب، إنه الآن وكيل مدرسة ولكنهم نقلوه، ويقول إن كل شيء يصيبه بالغثيان «هزت رأسها» وكشف حساب المعاش، هناك نقص كذلك» وضع يده على يدها التي كانت تبدو صغيرة وضعيفة. أزاح يده واحتفظ بذكرى يدها، بدفئها وخشونتها. ظل مطرقاً إلى أن انقشعت الانتحابات والدموع المكبوتة. انتظر فكر. ليس الأمر هكذا. لا الخال «إيدي» ولا المعاش يمكن أن يكونا سبباً لذلك كله. لابد أن يكون متعلقاً به. شعر بأنه قد علاه شحوب. لا شيء يمكن أن يزعج أمه إلى تلك الدرجة إلا إذا كان يخصه. رفع بصره.

أمه تزم شفتيها بإحكام، عيناها مبللتان والكلمات تخرج من فمها بصعوبة بالغة. ولكن بثبات «بطاقة بريد لك، هناك في الصالة».

وضع الفنجان من يده على الفور ونهض واتجه إلى الصالة. كان يرى البطاقة من بعيد، بيضاء، عادية. حجمها عادي، ملقاة ـ ببراءة على الطاولة بجوار المزهرية الزرقاء. اندفع وأخذها، قرأ العنوان رأى الختم الأبيض والأسود والمثلث الأحمر المحيط بحرف «R» ثم قلب البطاقة ونظر أولاً إلى التوقيع. لم يكن واضحاً. وفوق سطر طويل «قائد تجنيد المنطقة» ثم كلمة «ماجور» مطبوعة تحت السطر.

كل شيء هادئ، لم يتغير أي شيء، مجرد بطاقة بسيطة وصلت بطاقة عادية جداً، الكلمة الوحيدة المكتوب عليها بخط اليد كانت لذلك التوقيع غير الواضح.. توقيع «الماجور» أو شيء من هذا القبيل. الضوء المائل للخضرة القادم من الجزء العلوي من باب الصالة جعل كل شيء يبدو وكأنه يطفو على سطح ماء المزهرية الموجودة في مكانها. سترته معلقة في الخزانة، سترة أمه كذلك، وإلى جوارهما البرنيطة، برنيطة يوم الأحد وفوقهما الوشاح الأبيض الأنيق. البرنيطة التي كانت تلبسها وهي ذاهبة إلى الكنيسة عندما ركعت إلى جواره تصلي بهدوء بينما كان هو يقلب صفحات كتاب القداس بهدوء أيضاً. كل شيء كان كما يجب، من خلال باب المطبخ المفتوح كان يسمع ضحكات النجارين في الفناء الخارجي، وكانت السماء صافية بعد أن انتهت العاصفة. بطاقة عادية وصلت، موقعة على عجل من «ماجور»، ربما كان يركع بالقرب منه في الكنيسة أيام الأحد وكان ينام مع زوجته ويربي أولاده ليكونوا ألمانا صالحين. ويوقع أكداساً من البطاقات طوال الأسبوع. لا ضرر ولا حذر!

لا يعرف كم مضى من الوقت وهو واقف بالبطاقة في الصالة ولكنه عندما التفت كانت أمه هناك. جالسة تبكي، تسند رأسها المرتعشة على يد، ويدها الأخرى ملقاة في حجرها بلا حراك. كأنها ليست يدها، كانت متعبة وبائسة!.

ذهب إليها، رفع يدها وحاول أن ينظر في عينيها ولكنه لم يفعل ذلك على التو. كان وجه أمه مشوهاً غريباً.

كان وجهاً لا يعرفه، لم يره من قبل، مخيفاً بالنسبة له ولا سبيل إليه. جلس صامتاً يرتشف قهوته، تناول سيجارة ولكنه تركها تسقط فجأة، ثم حدق أمامه مباشرة.

من خلف اليد المسنودة جاء صوت: لابد أن تأكل شيئاً.

– يجب ألا تحزني يا أمي.

صب قهوة، أضاف الحليب ووضع مكعبين من السكر ثم أشعل سيجارته، أخذ البطاقة من جيبه وقرأ بصوت خفيض:

«عليك الحضور إلى ثكنات بسمارك في أدنبروك في تمام الساعة السابعة من صباح يوم الرابع من يوليو وذلك للتدريب العسكري الذي سوف يستمر ثمانية أسابيع».

هزت رأسها. قال: «كان لابد أن يحدث ذلك، وكنت أعرف أنني سوف أستدعى لمدة ثمانية أسابيع من أجل التدريب».

– نعم. أعرف . ثمانية أسابيع.

كلاهما كان يعرف أنه يكذب. كان يكذبان ولا يعرفان السبب. لم يستطيعا أن يعرفا. ولكنهما كانا يكذبان، ويعرفان، كانا يعرفان أنه لن يذهب لمدة ثمانية أسابيع فقط.

قالت مرة أخرى: لابد أن تأكل شيئاً.

تناول شريحة خبز، غطاها بالزبد ووضع عليها بعض النقانق. وبدأ يقضم ويمضغ ببطء شديد. وبلا شهية.

قالت أمه: «ناولني البطاقة».

أعطاها إياها. كان على وجهها نظرة غريبة وكانت هادئة، تفحصت البطاقة جيداً وقرأتها بهدوء.

سألت وهي تضعها على الطاولة: ما اليوم؟

– الخميس!

– لا ! أقصد التاريخ.

– الثالث من الشهر.

الآن فقط أدرك مغزى سؤالها. ذلك يعني أن عليه أن يغادر في نفس اليوم، كان عليه أن يقطع مسافة مائة وثمانين ميلاً إلى الشمال قبل السابعة من صباح الغد متجهاً إلى ثكنات مدينة غريبة.

وضع شريحة الخبز التي كان قد أكل نصفها، لم يكن ثمة معنى للتظاهر بالجوع. غطت أمه وجهها بيدها ثانية وراحت تبكي بشدة كان بكاء غريباً بلا صوت.

دخل إلى غرفته وحزم حقيبته. وضع فيها قميصاً وزوجين من الملابس الداخلية وبعض الجوارب وورق الكتابة، ثم أخلى الدرج وألقى بكل ما فيه في الموقد دون أن يفحصه. مزق ورقة من أحد الدفاتر. طواها وأشعلها ووضعها تحت كوم الورق في البداية تصاعد دخان أبيض كثيف ثم أخذت النار طريقها إلى أن علا هسيسها خارج فوهة الموقد دقيقاً قوياً تحيط به ألسنة سوداء.

ضبط نفسه يفكر وهو يفتش في الأدراج والخزائن، سيرحل وسوف يبتعد عن أمه، عن الإنسان الوحيد في الحياة الذي يمكن أن يقول إنه يحبه.

سمعها تأخذ الصينية إلى المطبخ، عبر الصالة، نقر بسرعة على لوح الزجاج البارد وقال: «أنا ذاهب إلى محطة القطار وسأعود بسرعة».

لم ترد في الحال، كان يحس بالبطاقة الصغيرة وهي في جيب البنطال. ردت أمه: لابأس، عد بسرعة، إلى اللقاء، ثم وقفت في هدوء للحظة قبل أن يمضي. عندما عاد إلى المنزل كانت الساعة الثانية عشرة والنصف وقد انتهت من إعداد الطعام وتحمل الأطباق وأدوات الأكل إلى الغرفة.

***

عندما يتذكر الآن يبدو له ذلك المساء المعذب أسوأ من الحرب كلها. بقي في المنزل ست ساعات أخرى، كانت أمه تحاول أن تفرض عليه أشياء تعتقد أنه سيكون في حاجة إليها. مناشف حمام ناعمة على نحو خاص، طعام، سجائر، صابون، وكان يعترض، كان يدخن وهو يرتب الكتب. أعدت المائدة ثانية: الخبز، الزبد، المربى، والقهوة! بعد القهوة، وبعد أن غابت الشمس خلف المبنى، وغسق هادئ مخيم أمام المنزل، دخل إلى غرفته فجأة، وضع حقيبته تحت إبطه وخرج إلى الصالة.

قالت: ما هذا؟ هل لابد أن.

– نعم! لابد أن أذهب الآن.

رغم أن قطاره كان قد بقي على موعده خمس ساعات أخرى. وضع حقيبته على الأرض وقبل أمه برقة ويأس، شعرت وهي تضع ذراعيها حوله بالبطاقة في جيبه الخلفي وجذبتها، وهدأت فجأة بعد أن توقف نحيبها.

البطاقة في يدها تبدو عادية، لا ضرر منها بالمرة، الشيء الوحيد الحي بها هو توقيع «الماجور» حتى ذلك أيضاً كان يمكن أن يكتب على الماكينة بواسطة قلم الماجور الميكانيكي. الشيء الوحيد المخيف بها هو الختم المثلث اللامع ذو اللون الأحمر الفاقع وحرف الـ R الغليظ بداخله. وقصاصة صغيرة من الورق تلصق يومياً على الرسائل في كل

مكاتب البريد، ولكنه اكتشف الآن رقماً تحت حرف الـ R، رقمه، الشيء الوحيد الذي كان يميز تلك البطاقة عن غيرها. رقم 846، عندها أدرك أن كل شيء كان في مكانه. أن لا شيء يمكن أن يحدث، وأن هذا الرقم كان يربض بجوار سطر طويل يحمل اسمه في مكتب بريد ما.

رقمه، ولا يمكن أن يهرب منه وعليه أن يسرع نحو تلك الـ R الكئيبة. لا يمكنه أن يتخلف. كانت أمه هادئة تماماً عندما انصرف، دفعت بالبطاقة مرة أخرى في جيبه، قبلته قائلة في هدوء «الله معك»!

خرج. القطار لن يغادر قبل منتصف الليل والساعة الآن السابعة مساء، كان يشعر أن أمه تراقبه، وكان يلتفت من وقت لآخر ليلوح لها وهو في طريقه إلى الترام. وصل إلى المحطة قبل المغادرة بخمس ساعات، تنقل من مكتب إلى مكتب عدة مرات، قرأ جدول المواعيد مرة أخرى. كل شيء يبدو عادياً، الناس عائدون أو ذاهبون إلى الإجازات. معظمهم يضحك، سعداء عليهم آثار من لفح الشمس وخلو البال. الجو دافئ ومنعش. إنه جو إجازات. خرج مرة أخرى واستقل تراماً كان يمكن أن يحمله إلى المنزل، قفز منه في الطريق وعاد إلى المحطة، نظر إلى ساعتها واكتشف أن ما مضى من الوقت لم يكن سوى عشرين دقيقة. تجول وسط الزحام لفترة قصيرة، دخن صعد إلى عربة في الطريق اعتباطاً، قفز منها مرة أخرى وعاد إلى المحطة، كما لو كان يعرف أنه سيقضي ثماني سنوات في محطات القطارات. كانت تجذبه مثل المغناطيس. دخل إلى

غرفة الاستراحة، شرب بيرة مسح العرق من على جبينه، وفجأة تـذكر الفتاة في المحل الذي كان قد مر عليه أكثر مـن مـرة وهـو في طريقـه إلى المنزل. بحث عن رقمها في مفكرته، انـدفع نحـو تليفـون العملـة. دفـع بالعملة وأدار القرص ولكنه لم ينطق بكلمة عندما رد صوت من الناحيـة الأخرى. وضع السماعة. وضع عملة أخرى وأدار القـرص ثانيـة، سمـع صوتاً غير مألوف له يقول «مرحباً»، واسم شخص، فاستجمع شـجاعته وقال متلعثماً: هل يمكن أن أتحدث مع السيدة «ويجمان» مـن فضـلك؟ أنا السيد «شنتزلر».

رد عليه الصوت لحظة، ومن خلال السماعة. كان يسمع صوت طفل ينشج وموسيقى راقصة ورجل يسب وباب يصفق.

كان العرق يغطي جبهته، بعد ذلك سمع صوتها: نعم! تلعثم. «هذا أنا، «هانز»، هل يمكـن أن أراك ثانيـة، لابـد أن أذهـب إلى الجـيش، اليوم» يستطيع أن يقول إنها فوجئت. قالت «نعم!، ولكن متى؟ أين؟».

– في محطة القطار، الآن، عند البوابة.

***

جاءت بسرعة، شقراء، أنيقة نحيلة القوام. فم مستدير شديد الحمرة وأنف جميل، حيته بابتسامة، «مفاجأة».

– ماذا تحبين، ماذا سنفعل.

مكسه ٢٨٨

– كم لدينا من الوقت؟

– حتى الثانية عشرة.

قالت: فلنذهب إلى السينما.

ذهبا إلى السينما بالقرب من المحطة، المسرح صغير قذر في نهاية فناء واسع، وعندما كانا يجلسان في الظلام عرف فجأة. لابد أن يأخذ يدها ويمسك بها بقوة طوال الفيلم. كان الهواء دافئاً، والرائحة عفنة والمقاعد معظمها خال.

ضايقه إلى حد ما أنها تركته يأخذ يدها هكذا كأمر مسلم به. ولكنه كان يقبض عليها بشدة ويأس، لمدة ساعتين، وعندما خرجا من القاعة كان الجو مظلماً والمطر شديداً.

وهما متجهان إلى الحديقة، وضع حقيبته تحت ذراعه اليمنى وجذبها إليه باليسرى، مرة أخرى تستسلم، شعر بدفء جسدها الدقيق. المعطر. استنشق رائحة شعرها المبلل بماء المطر قبلها في رقبتها، وفي خديها، وجفل وهو يلامس فمها الطري بشفتيه.

كانت قد لفت ذراعيها حوله بشدة وتوتر، انزلقت حقيبته من قبضة يده وعندما قبلها أدرك فجأة أنه كان يحاول أن يحدد مكان الأشجار والنباتات على جانبي الممر.

المطر الفضي الرطب يلمع في المطر، الشجيرات يقطر منها الماء، جذوع الأشجار سوداء والسماء ملبدة بسحب كثيفة تسرع في اتجاه

الشرق. كان يشعر بميل نحوها، شعوره أشبه بالشفقة. وربما بالحب. لا يعرف! أخَّرَ عودتهما إلى الشوارع المضاءة حتى سكنت الحركَة حول محطة القطار وساد الهدوء، وعندما أحس بأن الوقت لابد أن يكون قد حان أبرز بطاقته عند الحاجز، وقدم تذكرة الرصيف الخاصة بها لثقبها. كان سعيداً برؤية القطار واقفاً في الساحة الخالية يتصاعد بخاره مستعداً للرحيل. قبلها مرة أخرى ومضى، عندما انحنى ليلوح لها كان يخشى أن تبكي ولكنها ابتسمت له، وظلت تلوح له لفترة طويلة بحماس، وشعر بارتياح شديد لأنها لم تبكِ.

***

وصل إلى المدينة الغريبة في حوالي السادسة صباحاً، كانت عربات الحليب تقف أمام الأبواب، وصبيان المخابز يسرعون ليضعوا الخبز أمام عتبات المنازل، وجوههم مغطاة بالطحين. وجوه شاحبة يعلوها مرح الصباح ونشاطه.

مجموعة صغيرة من الناس خرجت من أحد البارات، بينهم جندي، لم يكن يشعر بحاجة لأن يسأل أحداً عن الطريق، تبع الجندي، توقف عندما توقف عند محطة ترام، ووقف وسط العمال الصامتين الذين كانوا قد مروا به دون اكتراث.

شعر بالغثيان، كان قد تناول حساء ساخناً وخبزاً قديماً تلك الليلة في مكان ما. كان متعباً وشعر بأن جسمه قذر. عندما جاء الترام تبع الجندي وصعد إلى الرصيف ووقف بجانبه. لابد أنه مساعد ضابط أو رقيب، وجه الجندي أحمر وسمين ولا يوجد عليه أي تعبير، شعره الأبيض نافر من قلنسوته. جنود آخرون استقلوا الترام وكانوا يؤدون له التحية العسكرية.

دبت الحياة في الشوارع، ظهرت السيارات والدراجات، وامتلأ الرصيف بالعمال الذين كانوا يدخنون وهم يتوجهون إلى محطة أو أخرى، أطفال المدارس يعبرون الشوارع وحقائبهم الثقيلة على أكتافهم النحيلة، واصل الترام سيره عبر الشوارع يفرغ ما بداخله إلى أن تبقى فيه الجنود في نهاية الرحلة. آخر الخط!. نزل الجميع. سار ببطء خلف الرقيب بينما كان الآخرون يتحركون بسرعة حول سور طويل يحيط بمبان رمادية متشابهة.

سمع صفارات وجلبة بالداخل ورأى وجوهاً تطل من شبابيك كثيرة، وجوهاً رمادية فاترة الهمة، ثم ظهرت فجوة بين صف من الصناديق وارتفع حاجز عليه ألوان بيضاء وحمراء وسوداء أمام الرقيب. ابتسم الحارس ثم تبدل وجهه وصار صارماً. ارتفع الحاجز الملون أمامه أيضاً، وأصبح جندياً.

فجأة، سمع وقع خطوات في ذلك الظلام الكئيب، شنف أذنيه وتناول السيجارة من بين شفتيه، كانت قد أصبحت صفراء مبتلة عند نهايتها. يمسك بها في يده ويسمع الخطى الآتية من ورائه على اليمين، من وقت لآخر كان يغيب صوتها ثم يسمع صوت أحجار تتدحرج، ثم صوت الخطوات الواثقة المنتظمة مرة أخرى. أخيراً ظهر رجل عند تقاطع الطرق، كان عاملاً يلبس قلنسوة وأدواته تحت ذراعه يتقدم بهدوء نحو عربة يد مقلوبة. بدا من غير المعقول أو بالأحرى شيئاً يبعث على الضيق أن يكون هناك إلى الآن أناس يذهبون إلى العمل بمثل ذلك الانضباط والانتظام. اتخذ طريقه نحو حاجز المنطقة الأمامية وانتظر، رآه الرجل، توقف ثم تقدم ببطء، اقترب منه ثم قال بهدوء:

«صباح...».

رد عليه الرجل مرهقاً «صباح» ثم نظر إلى السيجارة وقال: «تريد أن تشعلها؟».

– نعم.

فتش الرجل في جيوبه ببطء، رأى شعره الأشيب، حاجبيه الكثين الأبيضين تقريباً وأنفه العريض الودود، ثم اشتعلت الولاعة أمام عينيه لتظهر منها شعلة صدئة أشعلت سيجارته. قال: شكراً.

وفتح علبة سجائره ومدها نحو الرجل الذي نظر إليه متردداً.

– تفضل.

لاحظ أصابع الرجل الخشنة عندما امتدت حذرة لتأخذ سيجارة. وضع الرجل السيجارة خلف أذنه وشكره بصوت خفيض ومضى وقف «هانز» يدخن عند الحاجز، كان يتكئ عليه منتظراً ولم يكن يعرف السبب. راقب الرجل طويلاً وهو يبتعد ويبتعد، كان أحياناً يختفي خلف أكوام الأنقاض وأحياناً يظهر في النور. وفي النهاية اختفى في الشارع البعيد حيث كانت الأشجار ما تزال كثيفة وتومض بلون أخضر، كنا في شهر مايو.

الفصل الثالث

لم يلتق أحداً أثناء سيره لفترة طويلة، معظم الشوارع من الصعب السير فيها، الأنقاض مكدسة من الأرض حتى الأدوار الأولى من الواجهات المحترقة، سحب الدخان تتصاعد ملتفة من بعض المنازل، والمسافة من الطريق الدائري إلى «روبنستراس» التي كان يقطعها قبل ذلك في عشر دقائق تأخذ الآن منه قرابة الساعة. أنابيب الغاز تطل من بين الجدران المهدمة، ومن وقت لآخر يصادف شخصاً رث الثياب أو امرأة ربطت شعرها على عجل بوشاح ممزق.

لم يعد مبنى واحد يقف في مكانه هنا في روبنستراس، الحمام العمومي الذي كان عند رأس الشارع قد انهار ويرى بلاط البركة الأخضر اللامع من بين أكوام المخلفات، وهنا حيث كان تقاطع الشوارع.. يرى عدداً أكبر من الناس، كلهم يسيرون ببطء، عليهم آثار البؤس والضجر،

وخلف صف من واجهات المباني المدمرة يسمع زئير مركبات ثقيلة يبدو أنها متجهة إلى الجبهة.

تسلق بحذر شديد كوم الأنقاض في «روبنستراس»، سمع رضيعاً يبكي في مكان ما خلف شباك مغطى بألواح رقيقة من الخشب وسمع صوت امرأة تنتحب في وهن. كان مدخل المنزل رقم 8 ما يزال في مكانه وكذلك بعض الحجرات في الدور الأرضي.

المدخل واسع وعميق ولكن الحائط الجملون غائر إلى الداخل ودعامات السقف كئيبة وناتئة. اقتربت منه سيدة عجوز وهو يهم بالدخول، على رأسها غطاء أخضر اللون ووجهها شاحب مجهد، شعرها الأسود الليفي يغطي جبهتها، وكانت تمسك في يدها بجاروف عليه براز كلب. سارت حتى أقرب كوم من الأنقاض وألقت بالبقايا ثم عادت.

قال: أبحث عن «جومبرتز» هل أنا في المكان الصحيح؟ أومأت برأسها فقط. كرر السؤال إزاء لامبالاتها:

- هل السيدة «جومبرتز» موجودة هنا؟

هزت رأسها ثانية. جفناها الثقيلان يغطيان عينيها الملتهبتين تارة، وتارة أخرى يبدو وجهها ميتاً!

قالت بهدوء: اتبعني!

تبعها في مدخل البيت، المكان مظلم، توقفت أمامه فجأة فرأى وجهها المتعب عن قرب، لها رائحة المطبخ، ماء الغسيل، بؤبؤا العينين يتحركان ببطء مخيف كما لو كانا يدوران بجهد جهيد. حدقت فيه بصعوبة، صوتها مبحوح وهادئ. قالت:

– ولكنها مريضة كما تعلم.

– أعلم.

فجأة تدلت شفتها السفلي، استدارت وسارت أمامه، في كل مرة تلتفت فيها كان يرى شفتها السفلى الصفراء الغليظة مدلاة فتجعل وجهها يبدو وكأنه يد مقززة.

وصلا إلى صالة فسيحة ومن خلال نافذة نصف دائرية فوق الباب كان يرى اتساع المبنى! الأثاث يعلوه التراب في كل مكان.. ثياب مبعثرة في الصناديق، حقائب وطاولات. وفي أحد الأركان يقف بيانو مثل وحش له ألف سن صناعية. وضعت المرآة الجاروف على الطاولة ونظرت إليه ثانية، أنصتت في البداية واضعة أذنها على ثقب المفتاح ثم نادت «سيدة جومبرتز» رد عليها في الحال صوت بارد:

– نعم.

– هنا رجل يريد أن يتكلم معك.

– لحظة من فضلك.

نظرت إليه وهي تهمس: مازالت في السرير.

الصوت من خلف الباب ينادي الآن:

- تفضل!

فتحت السيدة العجوز له الباب ودخل. غرفة كبيرة عالية السقف وتبدو نظيفة ومرتبة. الأرضية الباركيه لامعة، الطاولات الصفراء نظيفة. لمح في ركن فوق السرير الأسود تمثالاً للعذراء على قاعدة خشبية وأمامها مصباح أحمر صغير.

لا يوجد أي شيء آخر في الغرفة سوى كرسي وكومودينو صغير بجوار السرير. لاحظ أن السقف المدمر كان مثبتاً بشرائط عريضة من الورق الأبيض، ورأى لوحات زيتية داكنة معلقة على الجدران. أدرك أنها لوحات أصلية ذات قيمة.

توقف عند الباب. كل شيء يبدو مهيباً هادئاً جميلاً. قال الصوت الصافي الهادئ: تفضل اجلس.

كانت السيدة ترتدي سترة داكنة بياقة ذات أزرار وبدا وجهها شاحباً عندما اقترب منها. شعرها أبيض، لا لون له في الحقيقة، وبدا خفيفاً ومهوشاً يذكره بباروكات الدمى الشاحبة. اقترب ببطء.

قالت ثانية: اجلس من فضلك!

جلس. لم يستطع أن يتكلم، فتح معطفه فجأة وأشار إلى الزي العسكري الذي كان يرتديه تحته وإلى الشريط المجدول ورتبة الرقيب

والأوسمة على صدره والنجوم على كتفيه، كان كل شيء ما يزال جديداً. الأشرطة تومض والأزرار تلمع ولا يوجد بها خدش واحد.

هزت رأسها فقط، الوجه هادئ وملقى في كسل وسط الشعر الشاحب. قالت: حسناً، عرفت، ولكن كيف؟ لابد أن تخبرني.

كان قد وقف، خلع المعطف تماماً، وخلع سترة الزي الرسمي وأخرج الورقة الصغيرة من جيبه وسلمها لها مع السترة.

لم يتغير التعبير على وجهها، أشاح نظره بعيداً عنها وحدق في الشباك الكبير المغطى بالقماش. الشمس تخترق الملاءة عند قاعدة الشباك فبدت وكأنها تمتص اللون الأحمر، كأنه سائل خفيف القوام يتجمع ببطء ليملأ كل الخيوط، الآن تأكد أن اللوحات المعلقة على الحائط ذات قيمة حقيقية، تبدو وكأنها مرسومة بالضوء. وجوه ارستقراطية فوق ياقات مخملية. استدار ببطء ثانية نحو السيدة وتملكته الدهشة، كانت تتحسس حافة بطانة المعطف باهتمام.

ابتسمت وتناولت مدية من درج الكومودينو وبدأت في فك الخياطة. يداها هادئتان مثل وجهها تماماً، فكت بعض الغرز ثم جذبت اللفقة بشدة، وتحسست بيدها اليسرى في الفتحة المظلمة، وبحذر شديد أخرجت ورقة مطبقة. أعطتها له وقالت بهدوء: اقرأها. فتح الورقة وقرأ:

«المكان غير معروف، 6 مايو 1945، أنا الموقع أناده الرقيب«ويلي جومبرتز»، وبكامل قواي العقلية والجسدية أوصي بكل ممتلكاتي ومستحقاتي لزوجتي إليزابيث جومبرتز ني كروتيز».

وتحت هذه السطور وبخط واضح كان الاسم: الرقيب «ويلي جومبرتز»، ثم توقيع غير واضح وختم مستدير عليه رقم عسكري وكلمات تقرأ: ملازم أول.

أعاد إليها الورقة دون كلمة.

سألته: ما الخبر؟ هل أنت غاضب؟

لم يقل شيئاً، نظر نحو النافذة مرة أخرى، كان الوهج السائل على الملاءة قد اتسع وبدا الآن أقوى وأعمق لوناً. سألته ثانية: ما الأمر إذن؟

كانت هادئة وجادة. نظر في وجهها «لقد سرق مني موتي. زوجك سرق مني موتي. أعتقد أنني أعرف المشكلة، لم أستطع أن أحصل على ذلك الموت السريع النظيف، أخذه لنفسه، سرقه مني أعرف. كان موت بطل، موت بطل حقيقي ولم يكن ذلك من حقي. أعرف. كان من المفترض أن أعيش، كنت أريد أن أعيش. وأراد هو أن يمنحني الحياة. ولكنني أفهم الآن أن شخصاً ما يمكن أن يمنح الحياة لإنسان بأن يسرق منه موته». اتكأت إلى الخلف، بدا وجهها أكثر شحوباً أمام لون السرير الأسود، وهو يواصل كلامه «كان من المفروض أن أعدم كهارب من

الجندية، أمسكوا بي، لم يكن الأمريكان بعيدين. كان زوجك كاتباً في المحكمة العسكرية، أليس كذلك؟». أومأت برأسها.

«كان من المفترض أن يتم كل شيء على وجه السرعة، كان الأمريكان قريبين جداً وكنا نسمع أصوات معركة المشاة. في ذلك المساء جاء زوجك ليزورني في الحظيرة. كنت أنتظر الإعدام رمياً بالرصاص، جاء حاملاً الكشافَ، أضاءه وفتش في القش وقال في وجهي: انهض!

نهضت، لم أر وجهه، كان غائباً في الظلام.

سأل: لا تريد أن تموت أليس كذلك؟ قلت: نعم.

قال: اختف. قلت: لا بأس. وبدأت على الفور في الخروج إلى جواره. قال: انتظر دقيقة، البس هذه السترة الخاصة بي»، لم أكن قد رأيت وجهه بعد. وضع الكشاف في كوم القش وكان ضوؤه متجهاً ناحية السقف، وفي انعكاس الضوء رأيت وجهه، كان غير مكترث.

خلع سترته، وأخذ سترتي، قال: هيا!

وذهبت اختبأت في المزرعة على الطريق. بعد ذلك كنت أسمع صوت معركة المشاة يقترب فجأة.. رأيت أنهم كانوا قد بدأوا في تحميل مركباتهم على عجل وسمعت صوتاً، صوت القاضي وهو يواصل صراخه: جومبرتز، أين جومبرتز، كان الصوت يصرخ عبثاً. وقبل أن يرحلوا بوقت قصير أخذوه من الحظيرة وأعدموه، كان من الصعب سماع

ذلك حيث كانت دانات الهاون تتساقط على القرية ونيران الدبابات تدمدم فوق الأسطح، سكت لحظة.

«كنت وحدي في القرية لبعض الوقت، وحدي مع كوم الروث والجثة الملقاة بالقرب مني. في ضوء الحظيرة الضعيف الذي لا يكشف شيئاً، لقد عقد صفقة جيدة».

وصمت مرة أخرى. نظر إلى الوجوه المرسومة فوق الياقات المخملية وأضاف قائلاً:

– لابد أن تكونوا قد عقدتم صفقات جيدة في هذه الأسرة على مدى مئات السنين. أستطيع أن أرى ذلك. ثم توقف عن الكلام. قالت المرأة: يا إلهي! وللمرة الأولى يفارقها عدم الاكتراث «يا إلهي، ورغم كل ذلك كان يسألك إن كنت تريد أن تعيش».

– نعم. أعرف. سألني، إنهم دائماً يسألون ولا يخطئن.

قالت بهدوء: لا مفر. الآن لابد أن تعيش. وستكون سعيداً لذلك ذات يوم، سوف يساعدك الله.

شكراً على السترة، هل وجدت الورقة الصغيرة بسهولة؟

– وجدتها عندما كنت أبحث عن سجائر؟

ابتسمت: وهل كان هناك سجائر؟

– نعم! اثنتان.

وفجأة فتش في جيب المعطف، فتح العلبة، أخرج سيجارتين وألقى بهما إليها على السرير: «تفضلي».

نظرت إليه مصدومة فقال: حتى لا تقولي إنني قد تقاضيت ثمناً كبيراً لتلك المهمة التي كلفتني موتي.

استدار لينصرف وسمعها تبكي وهي تقول: ولكن لابد أن يكون معك سترة، ما اسمك؟. بالله عليك ما اسمك؟

وقف عند الباب ونظر إليها ثانية. كانت تبكي فعلاً وهي تصرخ: بالله دعني أصنع شيئاً من أجلك. ما اسمك؟

قال بهدوء: لا أعرف، أنا فعلاً لا أعرف اسمي في هذه اللحظة. كان آخر اسم لي هو «هنجرتز» أما الآن فلا أعرف، الأوراق في جيبي، وداعاً، ولم ينظر خلفه!

في الصالة قابلته السيدة العجوز مرة أخرى، حجر المريلة مليء بقشر البطاطا: «هل مات؟» أومأ برأسه عندما سألته بهدوء.

قالت: هذا ما ظننته. هل مات في الحرب؟

– أعدم!

– يا إلهي! هل تعرف من أعدمه؟ الألمان؟

– نعم الألمان.

– الألمان؟

سارت أمامه ثانية وهي تهز رأسها حتى المدخل المظلم، عندما كانا يقفان في الخارج.

– يا إلهي! ولماذا يفعل الألمان ذلك؟ هل قال شيئاً عند الهزيمة مثلاً؟!

– لا، كانت غلطة. أعدموه بالخطأ!

سارت في صمت نحو أقرب كومة قمامة وألقت بقشر البطاطا وعندما التفت نحوها كانت ما تزال هناك، ناظرة إليه.

الفصل الرابع

فيما بعد تذكر أن اسمه الآن «كيلر»، «إيريك كيلر». وكان وهو يطوف بالمدينة يحاول أن يطبعه في ذاكرته، راح يهمهم به مراراً وبإصرار «إيريك كيلر». وعندما لم يكن يفعل ذلك كان يفكر في كيفية تدبير ألفي مارك ليشتري الاسم مرة وإلى الأبد، إلى أن يأتي الوقت الذي يستطيع فيه أن يستخدم اسمه مرة أخرى.

كان اسمه الحقيقي «شنتزلر»، «هانز شنتزلر»، البطاقة البريدية كانت موجهة إلى «هانز شنتزلر»، ولكنه عندما كان على وشك الإعدام بالرصاص كان اسمه «هنجرتز»، كان لابد أن يعدم كضابط احتياط باسم «هنجرتز»، قبل ذلك بوقت قصير كان قد سمى نفسه «ويلكي» واستمر بذلك الاسم شهوراً قليلة «هيرمان ويلكي» عريف في الجيش.

منذ تسعة شهور تقريباً وهو يحمل معه ورشة وثائق: ختم رسمي من المطاط، حزمة من الأوراق الرسمية لكل شيء، كوبونات حصص الطعام التي يحتاجها، وكل الأسماء التي يريد أن يعطيها لنفسه. ورشة تمكنه من تحريك نصف سرية من الجنود بشكل غير قانوني، جيشاً خاصاً خيالياً يسير نحو أهداف خيالية، إلا أنها ورشة قانونية حيث أن الختم العسكري كان حقيقياً.

قبل أن يصبح «ويلكي» كان قد تنقل في المنطقة باسم «والدو» وقبلها باسم «سكونر»، وكان يختار الأسماء كيفما اتفق، وحسبما كان يجيء في ذهنه وهو يكتب. كان يصنع حياة لا يمكن أن تكون حقيقية، ولكنها كانت تبدو كذلك بواسطة ختم وقطعة من الورق. طبعة ختم مستدير على ورقة مسطرة بسطور خضراء تمنحها الشرعية، حالات متعددة من نفسه كانت تعيش في القوائم والسجلات دون أن تعاش فعلاً، في ثكنات مؤقتة وفي مكاتب توزيع الحصص التموينية ومطابخ الحساء ودور السينما ومحطات القطار. استطاع في مكان ما أن يحصل على جورب ومسدس مستخدماً اسما لا يذكره، صورة من تلك الصور التي اخترعها بأداة بسيطة تبعث على الضحك: قطعة من المطاط على قطعة من الخشب تحمل أرقاماً قليلة تتجمع حول نسر مهيب يمسك بصليب معقوف بين مخالبه. كان ذلك كل شيء، وقطعة من الورق تعطي اللمسة الأخيرة للعبة اللاوجود. في الفترة التي انقضت منذ ثلاثة أيام كانت له أسماء كثيرة ولكنها تبدو مثل ماض بعيد لا وجود له.

الآن، لا يستطيع أن يتذكرها كلها كان من المفروض أن يعدم تحت اسم «هنجرتز»، تذكر أنه عندما كان يتسكع في المدينة كان يكرر اسمه الحالي «كيلر»، «إيريك كيلر» اسم غال ثمنه ألفا مارك. فيما بعد وصل إلى منطقة مجاورة كانت المباني فيها ما تزال سليمة ويعيش فيها بشر. وبين كومتين من الرماد الرطب يتدفق منهما سائل أصفر في الإسفلت المنزوع، كانت تقف امرأة، شعرها أبيض قذر، وجهها شاحب وعيناها ميتتان، نادت: خبز، خبز، خبز.

راح يفكر: خبزا توقف ونظر إليها. قالت ثانية خبز، كوبونات خبز.

بدأ يفتش في جيوبه عن نقود، وجد ستة ماركات، مد يده إليها بأوراق العملة القذرة وقال «خبز». أومأت برأسها قائلة: عشرون ماركاً لرطلين!

حاول أن يحسبهما في رأسه بينما هي محدقة ولم يستطع. قال: خمسة ماركات لنصف الرطل!

سحبت يدها من جيب سترتها وبدأت تفتش في مجموعة الكوبونات الحمراء القذرة. أعطاها خمسة ماركات ورأى الكوبونات في يده، قطع صغيرة من الورق المطبوع.. سألها هل هي صالحة؟

رفعت حاجبها بضجر ورمشت بعينيها مثل الدمية وقالت: طبعاً ألا تعرف أننا في وقت السلم الآن؟

– سلم؟! منذ متى.

– منذ صباح اليوم، نحن في وقت السلم منذ الصباح، لقد انتهت الحرب!

– أعرف! انتهت منذ وقت طويل، ولكن، السلام؟!

– لقد استسلمنا، ألا تصدق؟

– لا!

نادت أحد الأشخاص المبتورين والذي كان يجلس على بعد خطوات قليلة ويمسك بصندوق سجائر مفتوح أمامه. فجاء وهو يعرج، «هذا الرجل لا يصدق أننا في وقت السلم».

«من أين أنت؟» لم يرد عليها.

– لقد انتهت الحرب بالفعل، ألا تعرف ذلك؟».

– قال «هانز»: لا، ولكن من أين يمكن أن أشتري خبزاً بهذه الكوبونات؟ وهل تصلح؟».

قال الأبتر: نعم. تصلح. نحن لا نغش أحداً، ويوجد مخبز قريب من هنا.. عند الناصية، هل تريد بعض السجائر؟

– لا، لابد أنها غالية جداً.

– ستة ماركات.

حصل على خبز بالكوبونات فعلاً من المخبز على الناصية، وزنوه له بدقة، خمس شرائح، وعندما وجدت المرأة الواقفة عند الميزان أن

الشريحة الأخيرة كانت سميكة قطعت منها جرامات قليلة وألقت بها في سلة مجاورة.

ها هو يحتفل بمقدم السلام جالساً على صندوق القمامة، يأكل شرائح الخبز جيداً، بهدوء ويحسب ما تبقى معه من العملة التي أعطاها له الخباز. لم يكن يعرف أن الخبز غال جداً، دفع يده ببطء في جيب معطفه ليخرج علبة السجائر، وعندما وجد المظروف المكرمش جذبه وقرأ:

«ريجينا أونجر ـ ماركيش ستراس ت رقم 17».

***

الأطلال التي يسير بينها الآن مختلفة، تلال نمت فوقها خضرة كثيفة.. شجيرات صغيرة.. وعشب مختلفة ألوانه. تلال جميلة كانت المرات بينها تبدو مثل الطرق الريفية الهادئة وعلى جانبيها الأعمدة الخشبية التي تحمل خطوط كهرباء الترام، وقضبان لامعة.

سار ببطء في الطريق الغائر حتى قابل شخصاً كان يجلس مقرفصاً على صخرة كبيرة، وبدا أنه كان ينتظر تحت لافتة كتب عليها حرف «H» بالحجم الكبير واللون الأخضر. نظر إليه الرجل في وهن ووضع يده بطريقة غريزية ليحمي كيساً رثاً تبدو من بين ثقوبه بعض ثمار البطاطا. سأله هانز «هل يقف الترام هنا؟» قال باقتضاب: نعم. وأدار له ظهره.

جلس «هانز» على الإفريز. كان يرى على البعد وراء التلال الصور الظليلة للمباني المحترقة وبقايا أبراج الكنائس المدمرة. فجأة وقع بصره على طوق معدنية غريبة كبيرة الحجم، يبدو أنها كانت قد ظلت محتفظة بشكلها، كانت تبرز من وراء التل. المعدن لونه أسود من آثار اللهب، وفي وسط الدائرة يستطيع أن يميز الطائر الصغير الذي كان يضيء الليل ذات يوم على هيئة ديك أحمر: العلامة النيون لقضيب وديك يبدو أنه كان يدير العجلات داخل الطوق، ديك راقص، ضوؤه أحمر ناري كان يطل من الإعلان الملون. نظر بسرعة نحو الرجل المقرفص بالقرب من البطاطا وسأله: هذا إذن جروس ستراس.

أجاب الرجل مستاء: نعم! دون أن يحرك ظهره الكثيب.

بدأ الناس يتجمعون تدريجياً عند محطة الترام، لم يكن واضحاً من أين أتوا، كأنهم ينبعثون من أحشاء التلال، غير مرئيين، غير مسموعين ـ أشباح تخرج من الفراغ!.

لا يعرفون لهم طريقاً ولا هدفاً. هياكل تحمل الصناديق والصرر، كل هدفهم كما يبدو هو تلك العلامة التي تحمل حرف «H». ظهروا دون صوت واصطفوا في سكون كتلة صماء، لم يبد عليها أي علامة للحياة إلا عندما سمعوا الصوت الصارخ وجرس الترام القادم!.

الفصل الخامس

كانت المرأة التي ظهرت عند الباب ترتدي ثوباً أسود، ياقته مرفوعة إلى أعلى ورأسها الجميل مستكين بين أركانها مثل فاكهة ثمينة في وعاء داكن! الشعر أبيض والوجه مستدير وشاحب، وفجأة صعقته عيناها، داكنتا السواد بشكلهما المثلث.

سألته: عفواً! ماذا تريد؟

– أريد أن أعيد لك المعطف يا سيدتي.

– المعطف؟ أي معطف؟

– كان معلقاً في المستشفى، في الدور الأرضي، في غرفة الأشعة وكان الجو بارداً، وأنا...

اقتربت منه، ورآها تبتسم فبدت أكثر شحوباً.

– تعال.

دخل إلى غرفة رائحتها عفنة وأغلق الباب، كان مرتبكاً فنظر حوله. لا يوجد أحد. لم يكن السرير الموجود خلف الباب مرتباً، ومن تحت رداء السيدة التي كانت تستند على شيء ما لمح ساقي البيجامة، يبدو أنها كانت في السرير عندما طرق الباب، خلع المعطف بهدوء، تناول العلبة من الجيب ومد يده إليها: ما زال يوجد بها سجائر، أسف، لقد دخنت منها.

هزت رأسها ولاحظ أنها لم تكن مصغية إليه ولا حتى تشعر بوجوده رغم تحديقها فيه. خلف ساقيها النحيلتين كان يرى الآن أربعة أرجل خشبية تصل بينها قطعة أخرى. الجزء الأسفل من مهد أو سرير طفل صغير، كل شيء هادئ. نظر إلى الشباك المغلق، فجأة انطفأ المصباح الكهربائي الضعيف المعلق فوق رأسها فصاح رغماً عنه: يا إلهي!

– لا يهم، سوف يعود النور بسرعة.

وقف صامتاً جامداً في مكانه، سمعها تتناول علبة كبريت، أضاء الضوء الأصفر وجهها ثم خيم الظلام فجأة، استقر ما بقي من الضوء على مجموعة الأدراج المجاورة للسرير. كانت قد أشعلت شمعة.

– اجلس.

لم يرَ أي مقعد بالقرب منه فجلس على السرير.

بدأ: سامحيني، لابد أن تسامحيني.

قالت بهدوء: ش ش ش، لا تقل شيئاً من فضلك أكثر من ذلك، عن ذلك.

صمت وراح يفكر، يمكنني أن أنصرف الآن ولكن لا أرغب في ذلك، والأهم أنني لا أعرف إلى أين أذهب. نظر إلى المرأة. التقت عيونهما للحظة فقال: مازال هناك ضوء كثير في الخارج. وفري الشمعة!

هزت رأسها في صمت ونظرت نحو المهد الموجود في وسط الغرفة.

قال: آسف. سوف أتكلم بصوت خفيض.

زمت شفتيها كمن تحاول أن تكتم ابتسامة: صوتك لن يوقظه لا شيء سيوقظه، لقد مات ودفن بالفعل.. صعقته رنة اللامبالاة في صوتها، شعر أنه لابد أن يقول شيئاً أو يسأل عن أي شيء.

– إجهاض؟ وعض شفته.

قالت بهدوء: لا. وعادت إلى السرير وجذبت الغطاء وسحبت الياقة السوداء حول رقبتها.

– «مات! عندما جاء الأمريكان منذ ثلاثة أيام خبا في عينيه ضوء هذه الحياة الحلو. في نفس اللحظة التي أصابت فيها طلقة مدفع ألماني شباكي». وأشارت نحو الشباك فرأى آثار الطلقة. واصلت وهي تشير بإصبعها «كانت الطلقات تمر من هنا وهي تصفر وترتطم بالسقف الجصي الذي كان يتساقط علينا مثل سكر البودرة».

سكتت فجأة واستدارت نحو الحائط. كانت ترقد بلا حراك، لا يسمع حتى صوت تنفسها، الكتفان متخشبان. قالت: أريد أن أنام الآن، أنا متعبة!

– إلى اللقاء.

– أين تعيش؟

قال متردداً لا أعرف. ثم انتظر لحظة، «ربما كان بإمكاني أن أنام في أي غرفة لديك».

قالت بهدوء: لدي غرفة واحدة، عندك في الركن ستجد مرتبتين وهناك بطاطين فوق الخزانة، هل تسمعني؟. سألته دون أن تستدير، وجد المرتبتين القديمتين، ومن أحشائهما كان يبرز قش مائل للخضرة وضعهما على الأرض ثم شب على أطراف أصابع قدميه ليحضر البطاطين الملفوفة من على الخزانة، للبطاطين رائحة ملاجئ الغارات الجوية.

قالت: عندما تنتهي، أطفئ الشمعة من فضلك.

– حاضر.

وعندما أطفأ الشمعة قال همساً: تصبحين على خير.

– تصبح على خير.

رغم إرهاقه الشديد لم ينم في الحال، كان مريحاً أن يمدد ساقيه وأن يعرف أنه يحمل بطاقة هوية تنفعه في الوقت الحالي، كان يسمع

مكسه ٢٨٨؟

صوت تنفسها من وقت لآخر في صمت الغرفة المخيم، ومن خلال مثلث المصراعين المشقوقين كان يرى أن الجو في الخارج قد بدأ في الإظلام.

***

عندما استيقظ لم يكن النهار قد طلع، وكان يشعر بالبرد، وكان النور يتسلل من خلال المصراعين على هيئة مثلث ضوء شاحب، كان قريباً من الأرض، ومن خلال الجزء الأسفل من المهد يراها مستلقية على السرير وهي تدخن. نفثات قصيرة من الدخان تظهر في مساحة الضوء المحدودة، والدخان يتجمع ملتفاً مثل سحابة غبار حول الأشياء الموجودة بالغرفة كأنه ضباب. اليد مدلاة من السرير بالسيجارة، ويرى كم السترة الصوفية ذات اللون البني، واليد البيضاء الصغيرة والسيجارة، رأى وجهها الشاحب المستدير، شعرها الأبيض المهوش حول رأسها وعينيها السوداوين الساكنتين.

نظرت إليه بهدوء: صباح الخير.

رد بصوت مبحوح: صباح الخير.

- هل تشعر بالبرد؟

شعر بقشعريرة غريبة تسري في عموده الفقري عندما سمع الصوت الحميم الذي خاطبته به، صوت عادي. لا خجل فيه، وبه شيء لا يعرف كيف يصفه.

قال بسرعة: نعم، أدرك أنه كان يتكلم بصعوبة وبدا صوته مرهقاً ضائعاً.

انحنت إلى الأمام وألقت إليه ببطانية ملفوفة سقطت بجوار المرتبة مثيرة غباراً كثيراً جعله يسعل.

«شكراً»، فرد البطانية فوقه ولفها بإحكام حول المرتبة. الضوء القادم من المثلث فوق المصراعين صار أقوى. وبدت ذرات التراب السابحة في الضوء أكثر كثافة.

– هل تريد سيجارة؟

– نعم، ومرة أخرى تهزه حميمية الصوت.

بحثت تحت الوسادة وتناولت علبة سجائر مكرمشة، أشعلت واحدة واستعدت لإلقائها إليه. ثم ترددت وقالت في ضعف:

«لا أستطيع. لا أستطيع، أن ألقي بها كل تلك المسافة».. أزاح بطانيته جانباً وجذب بنطاله الذي لم يكن قد خلعه وسار نحوها عاري القدمين، كان يشعر بدفء لذيذ وهو يمرّ عبر أشعة الضوء توقف ونظر في المهد الخالي. مازالت الوسائد تحمل أثراً، تجويفاً طرياً خفيفاً. لابد أن يكون مكان الطفل، فجأة عبره ظل ليجد أن المرأة كانت قد قامت وتقف الآن بجوار المهد، كانت تسد المصراعين لتحجب الضوء النافذ منهما وكان النور متجمعاً حول ظهرها النحيل ويحيط بها مثل هالة، بينما وجهها الشاحب مليء بالظلال. ناولته السيجارة فوضعها بين

شفتيه. كانت تحدق في المهد ورأى شفتيها ترتعدان. همست «لا يمكن أن أكون حزينة. لا يمكن أن أحزن لذلك ولا يبدو ذلك غريباً» ثم نظرت إليه وكأنها تريد أن تصرخ» يبدو ذلك غير طبيعي، ولكن لا أرى فيه أي شيء غير طبيعي، أتفهم؟ بل إنني أحسده. هذا عالم ليس لنا، هل تفهمني؟».

هز رأسه. تراجعت غمر الضوء وجهه. كانت الشمس تشرق بسرعة وشعاع الضوء العريض مباشر بينما الجزء الأسفل من المهد غارق في الظلام قالت «أشعر بالبرد الشديد» ورآها تجذب الغطاء وتعود إلى السرير. سألها بهدوء: هل أفتح النافذة؟ النور شديد في الخارج.

– «لا، لا، دعها مغلقة». ردت بسرعة. ذهب إلى حيث مرتبته، جذب جواربه، تناول السترة التي كانت ما تزال ملقاة على الطاولة، ألقاها على كتفيه وجلس على سريرها.

مج نفساً عميقاً من السيجارة، شعر بالدوار والغثيان، أطفأها ووضع ما تبقى منها في جيبه. كان يود أن يسألها عن كل شيء ولكنه لا يستطيع أن ينطق بكلمة واحدة. نظر بعيداً، نحو تجويف النافذة. رأى الطاولة مكدس فوقها ملابس وأشياء أخرى كثيرة، والخزانة إلى اليسار عليها أطباق وسخة مبعثرة وبعض ثمار البطاطا النيئة. أدرك فجأة أنه كان جائعاً، هزه الجوع مثل نوبة تشنج حادة، وفواق متواصل يتصاعد من المعدة. لا نهاية له.

سأل بتحفظ: هل يمكن أن أجد بعض الخبز؟. ثم بطريقة حميمة: ألديك خبز؟

نظرت إليه وصدمته نظرتها مرة أخرى كأنها لطمة. تعثر. وشعر بأنه يترنح. قالت: لا، وشفتاها لا تتحركان تقريباً «لا يوجد لدي أي خبز، لو أن هناك خبزاً، فيما بعد سيحضر لي شخص ما بعض الخبز».

جلس ليستند على رجل السرير، وفجأة سمع نفسه يقول: هل يمكن أن أظل معك هنا ـ أقصد مؤقتاً ـ أو لفترة ما، أو دائماً؟.

ردت بسرعة: نعم!

افترقت نظراتهما ثانية، والآن سحبت ذراعها من تحت رأسها. وسحبت الغطاء على كتفها واستدارت إلى الحائط.

«يمكن أن تبقى معي، ليس لي زوج، ولا أنتظر أحداً، كنت مع رجل واحد ـ منذ عام. وكان الطفل منه. لا أعرفه. لا أعرف حتى اسمه.. كنا ينادي كل منا الآخر بـ «أنت» وكان ذلك هو كل شيء وأنت.. هل لك زوجة؟

– لا! لقد ماتت.

– ولكنك تفكر فيها دائماً؟

– أفكر فيها دائماً نعم. باستمرار.. وهذا يحزنني ليس لأني كنت أحبها والآن افتقدها. لا. ليس الأمر هكذا. إنه شيء مختلف تماماً.

اتكأ إلى الخلف وتمطى في السرير حتى كاد رأسه يرتطم بالجدار، ولاحظ أنها سحبت رجليها لتفسح له مكاناً إلى جوارها.

نظرت إليه منتظرة. وعندما سحب عقب السيجارة من جيبه ألقت إليه بعلبة الكبريت، أكمل حديثه، «إنه شيء مختلف، أنا حزين لأنني لم أعرفها بالمرة، والآن رحلت قبل أن أقول لها شيئاً جميلاً، لم أكن لطيفاً معها. كان حفل الزفاف كئيباً، كل شيء تم على عجل، وكان كل واحد يرتجف خوفاً من صفارة الإنذار بغارة جوية وكان الجو بارداً، شبابيك الكنيسة الكبيرة كانت بلا زجاج وكان تيار الهواء شديداً والجو مظلماً واللون البني الطيني يخيم على كل شيء، الضوء الخالد على مقدمة المذبح كان يصدر هسيساً باستمرار وكان المصباح يترنح في السلسلة الحديدية المثبتة في السقف. كان علينا أن ننتظر قرابة نصف الساعة حتى يجيء القسيس، مر الوقت دهراً من الملل وأنا أحملق في رقبة حماي السمينة الشاحبة وهو واقف أمامي، مساحة من اللحم، مكتنزة مثيرة للاشمئزاز وكنت أراها لأول مرة، ثم جاء القسيس، إنسان سيء المزاج كان يرتدي روب الكورال فوق لباس الكاهن»، صمت قليلاً، أطفأ السيجارة وألقى بالعقب.

«بعد عشر دقائق كنا قد أصبحنا زوجين، كان الجميع متذمراً لسماع أقل صوت يقطع عواء الريح المتواصل، أو لصوت نعيب سيارة مارة، أو

عندما ترام يصدر صريره عند محطة قريبة، كان قلب كل واحد منا ينخلع من مكانه ويستعد للجري».

نظر إليها متنهداً، قالت له: أكمل، «عندما رجعت إلى المنزل وجدت برقية في انتظاري تبلغني بأن علي أن أعود إلى الجبهة الشرقية، وكنت هناك بالفعل قبل نصف الساعة، رغم أنني كان بإمكاني أن أبقى يوماً كاملاً.

– لم تكن معها أبداً؟

– بلى، كنت!

سكت ثانية ونظر إليها، هزت رأسها له لكي يكمل حكايته.

«زارتني بعد ذلك بشهرين وأنا أرقد جريحاً في المستشفى».

كانت ذكرى تلك الليلة الوحيدة التي قضياها معاً يقظة بداخله الآن لدرجة أنه لم يكن يريد أن يتحدث عنها. وفجأة أدرك أنه لن يمكنه. انحنى إلى الأمام. ذراعه على حافة السرير، أدار ظهره لها وحدق في الجدار الذي كان مثلث الضوء قد استقر عليه عبر إطار الباب

***

حينذاك، كان قد رأى مفرق شعرها تحته، المفرق الأبيض الدقيق، أحس بصدرها على بشرته، بنفسها الهادئ على وجهه، ووقعت عيناه إلى الأبد على مفرق شعرها الأبيض. حزامه ملقى في مكان ما على

السجادة والكتابة واضحة عليه «الله معنا». وعلى مقربة منه قميصه العسكري وطوق الرقبة القذر. كانت ساعة تدق والنوافذ مفتوحة، ومن شرفة بعيدة يأتي صوت رنين كريستال، سمع رجالاً يضحكون بهدوء ونساء يقهقهن، وكانت السماء زرقاء في ليلة صيف رائعة.

سمع دقات قلبها بالقرب من صدره وسقطت نظرته مرة أخرى على مفرق الشعر، الجو ظلام ولكن السماء كانت ما تزال محتفظة بصفائها الصيفي، وأدرك أنه لن يكون قريباً منها كما هو الآن ومع ذلك كان بعيداً عنها. لم يقولا كلمة واحدة، لا أحد منهما ذكر يوم الزواج: ولا الحفل ولا يوم فراقهما قبل ذلك بعامين عندما طلب منها أن تجيء إلى المحطة.

شعر بتكات الساعة تحمله بعيداً، كانت أقوى من دقات قلبه داخل صدره، ذلك القلب الذي ما عاد يعرف إن كان قلبه أم قلبها. كانت تكات الساعة تقول:

أنت في إجازة حتى ينتهي صوت الإنذار. كانت تقول: نم معها مرة أخرى. كانت تلك كل غاية تكات الساعة، وكان قد سمح له بزجاجة نبيذ.

كان يرى الزجاجة بوضوح، يراها تقف في الظلام على الطاولة الصغيرة شريطاً ضيقاً من الضوء، هكذا كانت الزجاجة فارغة. لابد أن السدادة ملقاة أيضاً على الأرض بجوار سترته وبنطاله وحزامه.

بعد ذلك كان يضع ذراعها حوله ويدخن باليد الأخرى. لم تقل كلمة واحدة. كل وقتهما معاً كان يطغى عليه الصمت. كان يعتقد دائماً أن هناك ما يجب أن يقال ولكنها لم تقل شيئاً.

بدت السماء في الخارج أكثر ظلاماً. ضحك رواد المنتجع في الشرفة أخذ يخفت، قهقهة النساء أصبحت تثاؤباً، وبعد ذلك سمع صوت رنين الكؤوس والنادل يجمعها، ثم جمعت الزجاجات أيضاً. أصبح الصوت بعيداً، ثم أزيلت المفارش وجمعت الكراسي والطاولات وسمع امرأة تنظف المكان. بدت كل الليلة وكأن ليس فيها سوى تلك المرأة المجهولة التي تكنس بهدوء دون أن يسمعها أحد. سمع صوت حفيف المقشة، وبعقله كان يرى المرأة وهي تنتقل في أرجاء الشرفة، ثم جاء صوت خشن يسأل من الباب: ألم تنته بعد؟.

أجابت المرأة بتعب مماثل: دقيقة واحدة.

بعد وقت قصير كان كل شيء في الخارج هادئاً، ومن مكان بعيد جاء صوت موسيقى. الساعة تدق، ومع كل دقيقة تمر كان يدهشه أن يجد نفسه ما يزال على قيد الحياة.

الزجاجة ما تزال هناك، شريط من الضوء أكثر ضيقاً. فجأة جفلت المرأة بجواره. خافت وحدقت فيه: كانت شاحبة. نحيلة. عيناها واسعتان في ذلك الظلام المخملي، وشعرها البني الخفيف مثل شعر طفل جعلها تبدو صغيرة السن. نظرت إليه كما لو كانت تنظر إلى شخص غريب. كانت خائفة. ثم أغمضت عينيها. وأمسكت بيده.

وهكذا ناما متجاورين إلى أن طلع النهار، كانت زجاجة النبيذ تظهر من بين الظلام ببطء، شريط ضوء يتسع ويتسع ويصبح أكثر وضوحاً إلى أن استدارت. بعد ذلك ظهرت سترة الميدان على أرضية الغرفة، وطوق الرقبة القذر وما عليه من كتابة «الله معنا» تحيط بالشعار الوطني والصليب المعقوف.

***

بينما كان يفكر في ذلك كله وهو يحدق في الجدران، كان مثلث الضوء قد ارتفع وتحول إلى اللون الأصفر. خمن أن تكون الساعة الآن الثامنة. تقلب فجأة عندما أحدثت سوستة المرتبة صوتاً ورأى أنها كانت قد قامت، تحمل بيجامتها مطبقة. سارت نحو الطاولة المكدسة بالملابس، تناولت بعض الأشياء ووضعتها حول ذراعها. وقفت إلى جواره وهي تسير نحو الباب، جذبت حذاءها.

وسألته بهدوء: متى ماتت؟

– بعد ذلك عندما نقلوها.

كان سعيداً لأنه يتكلم مرة أخرى.

تعرض القطار للقصف، وجدوا جثتها على الحصى بين القضبان دون أي أثر لجروح؟ أعتقد أنها ماتت من الخوف. كانت خائفة.

– هل تتمنى لو أنها كانت ما تزال حية؟.

نظر إليها باستغراب. لم يفكر في ذلك ولكنه رد في الحال.

- لا، لا أعتقد، أنا...

بدأت تزرر الروب الأسود وتلقي بالملابس على كتفيها.

- سوف أخلع ملابسي.

قبل أن تخرج سألها: هل هناك غرفة أخرى إذن؟؟

احمر وجهها لحظة، حمرة الخجل علت وجهها الشاحب. ثم استعاد الوجه شحوبه بنفس السرعة. «نعم!، ولكني كنت خائفة أن أكون بمفردي ليلة الأمس، قبلها بليلة واحدة كان طفلي ما يزال معي».

خرجت وسمعها تمشي متثاقلة في الصالة وتفتح باباً في مكان ما. وقف واتجه صوب النافذة.

عندما أزاح المزلاج وفتح المصراعين أغمض عينيه فجأة، كان الضوء شديداً في الخارج والشمس قوية ودافئة وفي الحديقة عبر الشارع الضيق كانت الخضرة منتشرة. بدت له الأشجار وكأنها لم تكن خضراء هكذا من قبل، أوراقها كثيفة، والسماء صافية وتغريد الطيور يملأ المكان.

من بعيد كان يرى بقايا المدينة المتفحمة وظلال الأطلال. شعر بألم شديد فأغلق النافذة، الجو الآن في الداخل معتم وهادئ مرة أخرى ومعزول عن شقشقة الطيور. والآن يعرف لماذا لم تكن تريد أن تفتح النافذة.

الفصل السادس

كان معظم الوقت راقداً في السرير لا يعرف فيم يفكر، مُتْعب! وأحياناً لا يستطيع أن ينام. كان المطر يتسرب من سقف الغرفة ومع ذلك لم ينهض من السرير، سحب البطانية فوق رأسه وترك الماء يتسرب إلى أن بدأت الأشياء تجف مرة أخرى. يدخن أحياناً عندما تأتي له بالتبغ أو السجائر ويأكل الخبز ويشرب القهوة أو الحساء، في معظم الأحيان كان لديهما حساء وأحياناً مربى للخبز. لم يكن يراها كثيراً، وكانت تمر أيام بكاملها لا يراها فيها ثم يسمعها بعد ذلك وهي في المطبخ وعندما يستيقظ في الصباح التالي يجد هناك شيئاً يأكله، خبزاً، زبداً، ويجد ركوة القهوة على السخان. كل ما عليه هو أن يضغط على الزر.

ولكنها كانت عادة ما تجيء إلى غرفته مرة كل يوم، يعيش الآن في الغرفة الكبيرة أما هي فتنام على الأريكة في المطبخ ولكنها تضع رأسها في الغرفة. رأى وجهها الشاحب الوسيم عندما سألته: هل تريد شيئاً تأكله، أو سيجارة؟

لماذا قال «نعم» ـ وكان دائماً يقول نعم ـ كانت تدخل وتضع كل شيء على الطاولة ثم تنصرف. أحياناً كان يناديها «دقيقة من فضلك»، وكانت تتوقف أثناء حركتها المسرعة وتلتفت ويدها على مزلاج الباب: نعم، ماذا؟

يصمت للحظة ثم يقول متلعثماً: سوف أقوم بسرعة، أيام قليلة فقط وسوف أساعدك.

وكانت تقول حينذاك وهي غاضبة: «كف عن هذا» وتنصرف! غابت يوماً بكامله، وكان عليه أن يقوم في الصباح ويدخل إلى المطبخ ليرى إن كانت قد تركت له شيئاً. كانت هناك دائماً رسالة موجزة مكتوبة «يمكنك أن تتناول نصف الخبز ونصف الزبد» أو «لا يوجد سوى الحساء وهناك سيجارة في الخزانة».

معظم الوقت كان جائعاً، ولكن الجوع لم يكن حاداً ليجعله يترك السرير، لا يقوم فقط إلا لكي يذهب إلى الحمام وكان ذلك يضايقه كثيراً. إذ لابد أن يرتدي ملابسه ويهبط السلالم وغالباً ما يقابل أحداً من الذين يعيشون في الدور الأرضي: امرأة شقراء طويلة القامة كانت تنظر إليه في

ريبة إلى أن يقول «مرحباً» فترد عليه مرحباً. أو أخرى أكبر منها سناً، تسكن الغرفة التي تحت غرفته تماماً، وجهها مرهق يحيط به شعر خشن لا تقول شيئاً حتى عندما يحييها. كان دائماً يسمعهم يغنون أو يتشاجرون، ومرة التقى رجلاً أنيقاً على نحو غير عادي. كان يرتدي حلة زرقاء بحالة جيدة وقميصاً أبيض وربطة عنق خضراء حياه أيضاً.

أحياناً كان يسمع صوت سيارات تمر ولكن ذلك كان في المساء. وفي المساء كان لا يقوم من السرير مطلقاً.

مر الوقت شعر به. بدا له مثل حلم يمضي سريعاً ولكنه حلم طويل لا ينتهي. الوقت شراب غريب لا طعم له يجرعه لحظة لحظة.

ذات مساء سأل «ريجينا»: ما اليوم؟

ردت بهدوء من خلال الباب ودون أن تلتفت: الخامس والعشرون.

فوجئ، مضى عليه راقداً في السرير ثلاثة أسابيع تقريباً. تبدو بلا نهاية. شعر وأنه في هذه الغرفة طوال حياته.

غرفة معتمة، نوافذها مغلقة دائماً، يأتي إليه الخبز والزبد والحساء والسجائر.

ثلاثة أسابيع، ربما كانت ثلاث سنوات، لقد فقد الإحساس بالزمن وبدا غارقاً في ذلك الواقع الشاحب. الواقع غير الواقعي. لم تزره «ريجينا» على مدى يومين متواليين، كان يسمعها فقط وهي تدخل إلى

غرفتها، وعندما يستيقظ في الصباح ويبحث في المطبخ عن شيء يأكله لا يجد شيئاً. ولا حتى رسالتها.

راح يفتش في الأدراج والخزائن. لا شيء.

وأخيراً وجد شيئاً لابد أنها كانت قد نسيته في برطمان مربى قديم. مادة غريبة داكنة اللون ثقيلة القوام ربما كانت مسحوقاً ذات يوم ولها رائحة الحساء. أذابها في قليل من الماء ووضعها على السخان. ورغم أنه كان جائعاً شعر بغثيان عندما سخن السائل في الوعاء وتصاعدت رائحته. رائحة صناعية منفرة. ولكنه ازدرده على أية حال. في الصباح التالي لم يكن هناك طعام في المطبخ ولكنه وجد الرسالة: «لم يعد لدي أي شيء، ربما في المساء». انتظرها في المطبخ ثم ذهب إلى السرير. نام واستيقظ عندما عادت كانت الظهيرة. عبر إلى المطبخ ووجدها جالسة على كرسي في يدها سيجارة وعلى الطاولة خبز. ضحكت عندما وجدته منتصباً أمامها فجأة وقالت: حسناً، تعال. هكذا جعل الجوع الحياة تدب فيك بعض الشيء».

ثم بمودة: «تعال، كُل شيئاً».

أحس بحمرة الخجل ونظر إليها بحدة: كان وجهها الشاحب خالياً من الاستهزاء. من أية سخرية وتعلوه حمرة خفيفة وشعر لأول مرة برغبة في أن يقبل. وهو جالس على الطاولة يرتشف القهوة، متفرغاً للخبز الجاف الذي كان يضعه في فمه بكل عناية سألته:

– هل فعلاً لا يوجد معك أي أوراق؟

– معي. ولكنها ليست حقيقية. ليست سليمة.

– أرني إياها.

جذب بطاقة الهوية من جيبه وناولها إياها، فحصتها بعناية، عبست قائلة: تبدو حقيقية. ألم تفكر في محاولة الحصول بواسطتها على بعض الكوبونات؟

هز رأسه: لا، صاحبها ميت، وهذا ليس اسمي. ولو انكشف الأمر.

– لديه بطاقة هوية صالحة!

– أكيد، لكن كيف؟ وبالمناسبة هل تترددين على المدينة؟

– طبعاً، كل يوم.

– عندك مظروف؟

– نعم.

– أعطني مظروفاً من فضلك.

نظرت إليه في دهشة ولكنها قامت وأحضرت من درج الخزانة مظروفاً أخضر اللون. وضع بطاقة الهوية داخله، لصقه وكتب عليه بالقلم الرصاص: «دكتور وينر ـ مستشفى «سان فانسان». وقال:

– هذه البطاقة لا تخصني، هل يمكنك توصيلها إلى هناك؟

تناولت المظروف، قرأت العنوان وقالت: ولكنك لا يمكن أن تظل دون بطاقة هوية، إنهم يلقون القبض على أي شخص لا يحمل بطاقة تسريح من الخدمة العسكرية.

وضعت المظروف في جيبها وقامت «سوف آخذها إلى هناك إذا كنت تريد ذلك، ليست لك!؟

– لقد استعرتها ونسيت أن أعيدها.

ثم قال قبل أن تتحرك: «دقيقة من فضلك» وعندما استدارت مدهوشة قال: «ألا توجد وسيلة أستطيع أن أكسب بها بعض النقود؟» ضحكت:

– تريد أن تكسب نقوداً؟

– نعم.

وشعر ثانية بحمرة الخجل «على أي حال لابد أن أفعل شيئاً. أريد أن أفعل أي شيء من أجلك أيضاً» لم تقل شيئاً، رأى جفنيها الخفيضين إكليلين أسودين على خديها الشاحبين. فتحت عينيها. رأى أنها كانت جادة، جلست، أخرجت سجائرها من الكيس الصغير واعطته واحدة وقالت: أنا سعيدة لأنك أخيراً مستعد لمناقشة ذلك معي، إن الأمور لا يمكن أن تستمر على هذا النحو أكثر من ذلك، ثم وهي تخرج آلة التصوير من الشنطة البلاستيك «هذا هو الشيء الوحيد الباقي لدي، ما هي مهنتك؟».

- بائع كتب.

ضحكت: لم أر أي محلات لبيع الكتب في المنطقة، والأهم من ذلك أنك لا يمكن أن تحصل على أي شيء من هذه المهنة.

- ماذا يبقى إذن؟

قالت: السوق السوداء، أفضل شيء.

راقبت وجهه عن كثب وبدت كأنها تبتسم ولكنها كانت جادة جداً، وجميلة جداً، شعر برغبة ملحة في أن يقبلها. قالت: ولكن السوق السوداء ليست لأمثالك. لا تحاول. لا جدوى من ذلك. أستطيع أن أقول ذلك من منظرك، هل تعرف ذلك؟».

هز كتفيه: ماذا أستطيع أن أفعل إذن؟

قالت: تسرق، هذا احتمال آخر، ثم نظرت إليه نظرة فاحصة «ربما تستطيع أن تفعل ذلك، ولكن أهم شيء هو أن يكون لديك بطاقة هوية سليمة لكي تستطيع أن تخرج.. وتستطيع الحصول على بعض كوبونات الحصص التموينية». بدا أنها تفكر، ثم أعادت آلة التصوير إلى الشنطة وقالت فجأة إلى اللقاء!

في ذلك اليوم لم ينم. انتظر جالساً في غرفته على قلق حتى تعود بعد الظهر، فتح مصراعي النافذة قليلاً وحدق في الخارج: في الخارج حديقة واسعة مهملة، وعلى صفحة السماء الرمادية الممتدة رأى جمعاً من الناس

يتحرك. كان عدد من الرجال والنساء يقطع الأشجار، سمع وقع الفؤوس وصوت الأشجار تسقط.

في ذلك المساء جاءت «ريجينا» إلى غرفته مباشرة ووضعت له ورقة بيضاء على الطاولة. جاء ووضع يده على كتفها، وقف إلى جوارها ناظراً إلى الورقة. كانت عليها عبارات مطبوعة، وإصبع إبهامها ينتقل من خانة إلى أخرى على الورقة. قالت: كل ما عليك هو أن تكتب اسمك هنا. أو ما تريد أن يكون اسمك. مهنتك، تاريخ الميلاد، محل الميلاد، والمكان الذي أسرت فيه. كل ما عدا ذلك حقيقي، الأختام والتوقيعات وهذا هو اسم المعسكر الذي تم تسريحك منه، تذكر هذا الاسم جيداً، ولكن لابد أن تكتب كل شيء بالألماني... والإنجليزي، هل تعرف الإنجليزية؟

– قليلاً، ولكن، يا إلهي! من أين جئت بذلك؟

– أعطيتهم آلة التصوير. وهي بطاقة حقيقية حصلت عليها من أحد الأمريكيين.

– يا إلهي!

ولكنه عندما احتضن كتفها بشدة أكثر دفعته عنها. قالت: أعدت البطاقة الأخرى إلى المستشفى.

– شكراً.

استدارت ناحية الباب. ناداها «ريجينا».

- ماذا؟

- ابقي معي.

وسار نحوها. حاولت أن تبتسم ولم تستطع، وقفت ساكنة وهو يضع يديه على كتفيها ويقبلها.

- لا، من فضلك دعني أذهب، أنا متعبة لدرجة الموت، لا أستطيع، ثم إني جائعة جائعة، جداً.

- أعتقد أنني أحبك. هل تحبينني؟

قالت متعبة: أعتقد ذلك، أعتقد ذلك بالفعل ولكن اتركني اليوم. اتركني وحدي اليوم من فضلك.

- حسناً، سامحيني.

هزت رأسها، فتح لها الباب وانصرفت، راقبها وهي تسير مرهقة في المطبخ، وسمعها تدخل مباشرة إلى السرير دون أن تضيء النور.

الفصل السابع

لم يستطع أن يصدق أن ذلك كله كان منذ ثلاثة أسابيع فقط:

تبدو المدة وكأنها سنة، وواضح أن الراهبة لا تتذكره. هي نفسها قد تغيرت إلى حد ما، بدت ذراعها السمينة وكفها التي تشبه كف الطفل أكثر نحافة، وجهها أكثر حزناً، إلا أنه تعرف عليها في الحال. كانت تنحني فوق إناء كبير يتصاعد منه البخار تغرف منه بمغرفة، وأمامها نسوة صغيرات السن يقفن أمام الفتحة التي يتصاعد منها البخار، تمد من عليها الدور منهن علبتها الصفيح إليه. الراهبة نفسها كان يغطيها البخار. كانت توزع عليهن حصص ذلك السائل الساخن الذي له رائحة اللفت ويحمل آثار الدهن المذاب..

بدا طابور المراويل المخططة بالأزرق والأبيض يتناقص، وسمع صوت احتكاك المغرفة بقاع الإناء، كما تضاءلت سحابة الدخان، مرت أمامه

عبر الباب المفتوح وعلقت بوجهه مثل عرق دقيق ساخن بدأ يبرد بالتدريج، رذاذ بسيط له رائحة ماء الغسيل.. غسيل الصحون. غادرت النسوة المطعم الصغير عبر ثغرة باب منزلق من بقايا الباب القديم. ومن وقت لآخر كان هواء يهب من ثغرة الباب يعيد البخار إلى الداخل ويدفعه من النافذة المفتوحة، للحظة ظهرت الراهبة وأمامها رقبتان نحيلتان: امرأتان، تنتظران...

ومن خلفه اندفعت عربة إلى الفناء وتم تفريغ حمل كبير من اللفت على الأرض، تركت الراهبة موقعها بسرعة، زرعت نفسها أمام الباب ونادت بصوت غاضب «على مهلك، إن هذا يتلف الكثير.. الناس في حاجة إليه، والمفروض أن هذه الأشياء للأكل».

كانت تقف إلى جواره تماماً، رأى وجهها وهو يرتعد غضباً وسمع سائقي العربات يضحكون خلفه، كان أحدهم يفرغ بقايا اللفت من قاع العربة بمذراة، بينما أعطى رجل آخر قصاصة من الورق للراهبة.

كان سميناً وشاحباً ومتعجلاً. أعادت إليه الراهبة الورقة بعد أن وقعت عليها، حدقت فيه وهو ينصرف وهزت رأسها، ثم نظرت إلى «هانز»، كانت لا تزال تمسك بالمغرفة في يدها تتساقط منها قطرات الحساء.. سألته: ماذا تريد؟

– أريد شيئاً لآكله.

قالت وهي تنصرف: مستحيل، كل شيء يوزع حسب الحصص لا يمكن.

ولكنه توقف وراح يراقبها وهي توزع الحساء على المرأتين الأخيرتين، كان يتجمد من البرد، في اليوم السابق كان الثلج قد تساقط، ثلج مايو، وفي الفناء كانت البرك الصغيرة ما زالت في مكانها وعند زوايا الجدران وفي المساحات بين أكوام الأنقاض والشقوق، وكان يرى أمامه كتل الثلج السوداء، أشارت إليه الراهبة بالغرفة فوق فتحة الإناء فذهب إليها مسرعاً..

همست: «لا تقل لأحد أنني أعطيتك شيئاً وإلا فإن نصف سكان المدينة سوف يصطفون هنا غداً»، ثم رفعت صوتها قليلاً «تعال، إذن».

غرفت له نصف مغرفة من الحساء في علبة صغيرة من الصفيح «بسرعة!»، ثم رآها تجري مسرعة نحو الباب وتراقب.

شرب الحساء بسرعة، كان ساخناً وخفيف القوام ولكن طعمه لذيذ، أهم شيء أنه كان ساخناً، أحس بالدموع تتجمع في عينيه، لم يستطع أن يحبسها، بدأت تنثال ولم تكن يداه حرتين لكي يمسحها، شعر بها تجري بين تجاعيد الوجه وتتدحرج نحو فمه، وكان يحس بنكهة الملح في طعمها..

وضع علبة الصفيح فوق غطاء الإناء الكبير وذهب نحو الباب رأى في وجه الراهبة شيئاً ما، لم يكن ما رآه شفقة بل الألم، لمح رثاء شارداً ثم شيئاً أشبه بوداعة الأطفال، سألته: هل أنت جائع جداً؟

هز رأسه، ـ «حقيقة؟» هز رأسه بشدة.. وحدق بشوق في تقوس شفتيها.. في الوجه الشاحب الممتلئ، «لحظة واحدة»، وذهبت ناحية طاولة في المطبخ، وفي لحظة رآها تفتح أحد الأدراج، تمنى لو أعطته خبزاً.. ولكن كل ما رآه.

هو أنها جذبت قطعة صغيرة من الورق، فردتها جيداً ثم ناولتها له.. قرأها، «صالحة لرغيف واحد يصرف من منزل جومبرتزر روبنستراس ـ رقم 8».

قال بهدوء: شكراً شكراً جزيلاً.. هل يزال هناك وقت لأذهب اليوم؟

– لا، الوقت متأخر.. لن تستطيع أن تصل إلى هناك قبل موعد حظر التجوال، اذهب إلى ملجأ الغارات الجوية وانتظر هناك حتى الصباح.

– نعم، شكراً، شكراً جزيلاً..!.

الفصل الثامن

لافتة كبيرة معلقة على الحائط مكتوب عليها بحروف مائلة باللون الأسود: «بطاطين: تأمين مائة مارك وبطاقة هوية».

كان الهواء عفناً، مشبعاً بعرق وبؤس الفقراء، ترك نفسه للحركة التي تدفعه إلى الأمام ببطء في الطابور الطويل نحو كوة مظلمة في الجدار الخرساني السميك، المدخل، المرأة الواقفة هناك والتي كانت مسؤولة عن كومة قذرة رثة مهلهلة سألته عن أوراقه فأعطاها «إذن التسريح» الذي كانت «ريجينا» قد أحضرته له. سجلت اسمه في كشف ثم سألت باقتضاب: بطانية؟

عندما هز رأسه دفعته، كان وجهها يهتز بعصبية شديدة وهي تنتزع بطاقة الهوية من يد الرجل التالي في الطابور، كانوا يتحركون من الخلف. ويتدفقون متدافعين، ترك نفسه يندفع إلى الداخل، والداخل

مكسه ٢٨٨؟

كان مزدحماً، كل الطاولات والمقاعد مشغولة. جلس على الأرض، كان قد هده التعب، الجو كئيب، ضوء النهار يتسلل من شق في مكان ما ولا توجد لمبة واحدة مضاءة.

فجأة بدأ الجميع يتذمر بسبب الإظلام، صوت جماعي نهم مجهول يصيح: النور، أضيئوا النور.

ظهر عند الباب موظف رسمي فظ راح يعلن بخشونة أنهم لن يضيئوا النور لأن اللمبات تسرق كل ليلة، وانتظر حتى خمدت الهمهمة والأصوات المتذمرة ثم أملى عليهم تعليمات المكان التي تتكون أساساً من التحذير من السرقة. ووعدهم بأن القطارات سوف تأتي في الصباح.

جثم على الأرضية الخرسانية في ركن بعيداً عن ضغط فيضان القادمين الجدد وكان سعيداً أن يجد لحظة هدوء وسلام، ولكن بهبوط الظلام أصبح كل شيء أسوأ مما كان. كان كل قطار جديد يصل يجلب معه جماعات كثيرة من بشر ممزقي الثياب، قذرين يجرون أكياس البطاطا والحقائب المربوطة بالحبال، وجنوداً يطوون مرايلهم الزرقاء في أيديهم أو يدفنون أيديهم في جيوبهم. وفي كل مرة يصل فيها قادمون جدد، كان الباب يفتح وكان يرى حواف رؤوسهم السوداء دون أن يتعرف عليها في الضوء الخفيف المنبعث من الصالة. بعد ذلك جاء الموظف مرة أخرى وأعلن في الظلام أن التدخين ممنوع، رد عليه الصوت

الجماعي محتجاً ساخطاً فصرخ في غضب «أنتم أحرار، دخنوا ولتختنقوا جميعاً».

في زوايا مختلفة كانت بقايا شموع تضيء وكان وميض السجائر الكثيرة والغلايين يصنع ضوءاً خفيفاً، خلفه امرأتان تجلسان على دكة وتحجزان - اغتصاباً - مساحة كبيرة حولهما بحقائب وصناديق. كان عندما ينظر إلى الأفراد متفرقين يراهم جميعاً بؤساء ومتعبين وصامتين مثله. ولكنهم كمجموعة كانوا صاخبين، ساخطين وبغيضين. وعندما كانت الشموع تذوب وتنطفئ واحدة تلو الأخرى كان الوميض الباقي هو وميض السجائر فقط، بدأ الكل يأكل. يسمع المرأتين الجالستين خلفه بوضوح أكثر من الآخرين تمضغان بعنف يبدو أنهما لن تتوقفا عن المضغ أبداً، الخبز أولاً، كمية كبيرة من الخبز.. ولوقت طويل. طويل جداً. كان يسمع صوتهما مثل صوت الأرانب وهي تقرقض الخبز الجاف في الظلام. ثم بعد ذلك شيء طري. لكن له صوتاً - يبدو فاكهة - تفاحاً ربما، وأخيراً تشربان. كان يسمع كل جرعة ماء. على يمينه ويساره وأمامه وخلفه كان الجميع يأكل في الظلام. كأنهم كانوا ينتظرون الظلام لكي يبدأوا. قضم ومضغ سري. جماعي... نهم. من وقت لآخر كان كانت ينشب عراك سرعان ما يخمد. تلك الوجبة الجماعية استقرت في عقله مثل صوت لعنة لا يعرف لها اسماً. لم يعد الأكل يبعث على السرور، كان قانوناً أسود يجبرهم على البلع بأي وسيلة وبأي ثمن لسد

جوع لا يشبع. بل يتزايد، أحس بأنهم يلهثون، ظلوا يأكلون لساعات طويلة وكلما كان ركن من أركان الملجأ يهدأ قليلاً، كانت تندفع جماعة جديدة قادمة من الخارج من محطة القطار. وبعد وقت قصير يرتفع مرة أخرى صوت خشخشة الورق والصناديق الكرتون والبحث في الأكياس والصرر وسحب الحقائب وفتح الأقفال وقرقرة الزجاجات، كل ذلك في سرية الظلام!.

رغم شعوره بالبرد كانت جبهته غارقة في العرق وكان قد اغتصب حرف بطانية ليجلس عليه متكئاً على صرة كبيرة. كان بعض الناس مازال يدخن. انتشر وميض السجائر وأصبح الهواء أكثر ثقلاً وفساداً، بعد ذلك انبعث صوت دندنة كونسرتينا وصاح رجل «إريكا، اعزف لنا إريكا». الرجل الذي كان يعزف، عزف «إريكا». بدأ آخرون يتصايحون طالبين أغاني مختلفة والرجل يطلب منهم الثمن بصوت مبحوح، كانت الهبات تمر غير مرئية في الظلام، تنتقل من يد إلى يد في رحلة صامتة في ذلك الجو الكئيب: شريحة خبز، تفاحة، نصف خيارة، عقب سيجارة، ثم فجأة تنشب مشاجرة في مكان ما.. وتنهال اللعنات واللكمات بسبب هبة لم تصل أو عندما ينكر عازف الكونسرتينا أنه قد تسلمها ويرفض أن يعزف اللحن المطلوب! ولكنهم سرعان ما كانوا يحددون المكان الذي اختفت فيه الهبة. عراك وتهديد وسباب وتدافع ثم تهدأ الأمور ويعزف الرجل اللحن المطلوب من شخص آخر. يبدو أن

المرأتين الجالستين خلفه قد غلبهما النوم، صمتتا تماماً. من مكان أبعد كان يسمع قهقهة خليعة من عاشقين. انخفض صوت «الكونسرتينا» وتناقص عدد السجائر المشتعلة، تحسس حوله في الظلام فاصطدم بأكوام لا شكل لها، لم يكن واضحاً إن كانت زكائب أو بشر.

لابد أنه نام بعد ذلك لأنه استيقظ فجأة على صرخة حادة: شخص ما داس على شخص آخر. ويبدو أن مشاجرة كبيرة قد حدثت على أثر اختفاء قطعة أثاث. كان صوت جاد يصرخ الحقيبة، الحقيبة! أريد أن ألحق بالقطار.. قطار الثانية والأربعين، شاركت أصوات أخرى كثيرة. قطار الثانية والأربعين، قطار الثانية والأربعين. هيا، هيا!.

حركة عنيفة متلاطمة في الظلام والصوت يواصل صراخه على حقيبته، انفتح الباب ورأى مجموعة من الرجال تقف في الصالة المضاءة بمصباح ضعيف وصوت الرجل ينادي.

– الشرطة، الشرطة، حقيبتي ضاعت!

أطبق الصمت على المكان بمجرد أن أطلت خوذتا شرطيين شقا طريقهما وسط الزحام. بعد ذلك كان ضوء كشاف ساطع يتحرك في أرجاء الملجأ يفضح ذرات الغبار المنتشرة في الجو والحشر المنكمش في حالة ترقب والذي بدا ضعيفاً فجأة كأنهم يصلون خاشعين. اتجهت الأبصار نحو ضوء الكشاف. كان صوت الشرطي قوياً وواضحاً. «حسناً، لو هذه الحقيبة». ولكن يبدو أن الرجل كان قد استعاد حقيبته وكان

يمسك بها. «ها هي. لقد وجدتها» اتجهت الأصوات نحوه محتجة مستهجنة «أيها الأحمق، انتبه في المرة القادمة، غبي».

أغلق الباب، وساد الظلام مرة أخرى ولكنه لم يستطع أن ينام بعد ذلك، كل ربع ساعة تقريباً كانت تثور جلبة جديدة فينتشر القلق كالموجة، إعلان عن قطارات، الناس ينادون بعضهم، يصيحون وهم يبحثون عن أمتعتهم والهواء يصبح أكثر ثقلاً، وأكثر فساداً!

كان من وقت لآخر يمسح العرق عن جبينه ولكنه يشعر بأن البرد الشديد يضرب نصفه الأسفل، البطانية والصرة التي كان يتكئ عليها أخذهما أصحابهما. زحف قليلاً حتى ارتطم بجسم ما، انحنى فوقه ليعرف إن كان حياً أم ميتاً، شم رائحة البصل القوية، أدرك أنه سلة كبيرة مغطاة ومخيطة، جلس عليها. مجرد الجلوس كان شيئاً رائعاً، مدد ساقيه وترك رأسه يسقط على صدره وراح في النوم مرة أخرى، لوقت قصير، إلى أن دفعه شخص ما من على السلة، وقال صوت «أيها الوقح»، ولكنه تمالك نفسه قبل أن يسقط على الأرضية الصلبة، زحف جانباً، تكوّم وانتظر قليلاً.

المساحات الخالية اتسعت الآن وظل يزحف إلى أن سمع شخصاً يتنفس. تحسس طريقه أمامه، أمسك بربلة ساق، حذاء، كان حذاء امرأة. كعب عال وقدم صغيرة. انحنى حيث لابد أن يكون وجهها.

مكسه ٢٨٨

قابله نَفَسُها الدافئ، مد يديه في ذلك العالم الوثير انحنى أكثر ولكنه لم ير شيئاً، شم رائحة صابون في تلك المرأة المجهولة التي لا يعرف عمرها أو شكلها، رائحة عطر خفيف. ظل محنياً فوقها ووجهه قريب من نفسها، رائحة الصابون تزداد قوة ونفسها هادئ دافئ، استدار نحوها ودس وجهه في معطفها، وجعلته تلك الرائحة القوية الجميلة ينام.

عندما استيقظ، كان المكان شبه خال، المرأة المجهولة ذهبت، ترك نفسه للزحام يدفعه مرة أخرى ثم كان عليه أن يقف عند الطاولة القذرة حيث كومة البطاطين، ويبرز أوراقه ليتأكدوا إن كان قد استلم بطانية أم لا، يقف عند الطاولة الآن رجل، مُقَوَّق، فظ، يمسك بين أسنانه بغليون ويجمع البطاطين ببلادة وهو يعد النقود الممتدة بها الأيدي القذرة.

كان الجو في الخارج صافياً وأكثر دفئاً، وعندما بدأ يبحث عن الورقة تدفق عرقه غزيراً بارداً، لم يجدها، بحث بسرعة وتوتر وشعر بخوف شديد، الخوف من ضياع الخبز أو سرقته، تسارعت دقات قلبه وكاد أن يبكي عندما وجد الورقة المطوية في الجيب العلوي من سترته. فردها بعناية ومضى في طريقه:

«صالحة لرغيف واحد يصرف من» كان قلبه ما يزال يدق وهو يسير، يدق بشدة!.

الفصل التاسع

ظل قلبه يخفق بشدة، كان مازال يفكر في الخبز ودقات القلب مثل نبض جرح مؤلم، بقعة مجروحة في الصدر. سار بأسرع ما يستطيع وكان يختار الشوارع ذات الممرات الخالية الضيقة، وفي الساعة التاسعة كان في الشارع المؤدي إلى «روبنستراس». كان عليه أن يبتسم عندما تذكر المرأة، ماذا ستقول عندما يظهر أمامها ويسلمها إيصال الخبز؟ لابد أنها سوف تتعرف عليه. كان يعرف ذلك، وربما عرضت عليه نقوداً، نقوداً كثيرة، نقوداً تكفي لشراء بطاقة هوية سليمة، بطاقة باسمه الحقيقي، ورقة حقيقية مثل الأوراق التي تباع وتشترى، ولكن الذي جعل قلبه يدق أكثر عنفاً من فكرة بطاقة الهوية، كانت فكرة الخبز: الخبز الحقيقي! طالما ليس لديه غير الإيصال فقط فالخبز غير موجود. كان يريد أن يحس به، يأكله، يقطع منه، يحمله إلى «ريحينا».. يريد خبزاً طرياً حلو الرائحة،

حتى القشرة البنية لذيذة الطعم. لذيذة كما ينبغي أن يكون الخبز.. تذكر الخبز الذي أكله عند الراهبة منذ أسبوعين، بالأمس كان قد خرج بحثاً عن شيء يأكله، كان قد وعد «ريجينا» بذل، ولكنه عرف أنه لن ينجح في أن يجد الكثير. ليس لديه نقود ولا أي شيء يقايض به. ورغم ذلك لابد أن يعود إليها برغيف. وربما بعدة أرغفة.

ربما أعطته نقوداً، نقوداً كثيرة يستطيع أن يشتري بها خبزاً كثيراً، ارتفع سعر الخبز منذ انتهت الحرب، كان السلام يدفع بالأسعار نحو الارتفاع إلا أن الخبز كان متوفراً. لكنه غال.

قرر ألا يشتري بطاقة هوية، سوف يشتري خبزاً فقط، على أية حال. البطاقة التي معه تكفي مؤقتاً، ورقة دفعت فيها «ريجينا» آلة التصوير الخاصة بها.

وهذا أمر سيء، ربما كان من الأفضل أن تشتري خبزاً.

جلس على أطلال المسبح العمومي حتى تهدأ دقات قلبه وتعود إلى طبيعتها، ولكن تلك البقعة المجروحة في الصدر بدت وكأنها تتعمق وتتسع. للألم حلاوة غريبة! بلاط المسبح الأخضر نظيف على أثر مطر وثلج الأيام القليلة الماضية وكان يلمع في ضوء الشمس. كان هناك باب يؤدي إلى غرفة خلع الملابس لونه أخضر. أخضر لامع عليه لوحة مطلية بالميناء تحمل رقماً.

كان يمكن تحديد تاريخ تدمير أي مكان عن طريق النباتات النامية في المنطقة: هذا الكوم من الأنقاض كان عارياً جداً، كتلة أحجار وحصى وطلاء وجص يابس، مكدسة بعنف، تبرز من وسطها أسياخ الحديد الجديدة التي لا أثر عليها للصدأ، هنا لا توجد عشبة واحدة، بينما في أماكن أخرى كانت النباتات قد نمت، ما يوجد هنا دمار عار فقط، دمار فارغ بائس كما لو كان نَفَسُ القنابل مازال بالجو. البلاط فقط كان يلمع في براءة. وجد نفسه متلبساً بالتفكير في المبلغ الذي قد تقدمه له المرأة. «ألف» فكر في البداية، بعد ذلك كان عدة ألوف، وضايقه أنه كان قد رفض عرضها بالمساعدة آنذاك. ربما كان لديها مال كثير، وربما كانت وصية زوجها بمئات الألوف. أما هو، فقد دفع الكثير من أجلها، دفع موته. كان عندها منذ أربعة عشر يوماً، بدا ذلك ماضياً بعيداً، انتهاء الحرب جعل تلك الأيام تبدو بعيدة وطويلة. راح يحدق في ذلك الماضي السريع كأنه صورة أمامه، صورة صغيرة جداً، بدت له أكثر بعداً من التاريخ اليوناني الذي كان يراه بعيداً، بعيداً في الزمن.

الآن، تسلق شاهان الأنقاض وبدأا في فك باب المهجع المدمر. كانا يعملان بمهارة ويستخدمان مطرقة لفصل إطار الباب من الغراء وجذب الألواح من مكانها ويحولان الباب إلى قطع متساوية من الخشب.

وقف ليأخذ وجهته في الشارع، فكر في الخبز، سوف آكل خبزاً بالتأكيد. وسوف أحصل على بعض النقود، راح يحسب النقود، مبلغ

كبير، أقساط مقابل موته، من المؤكد أن القسط الواحد يكفي لشراء عشرين رغيفاً.

عندما دخل ردهة المبنى شعر بأن يده التي كانت تمسك بالإيصال، رطبة يغطيها العرق. وعندما فرد الورقة كانت الكتابة غير واضحة، طرق الباب. مر وقت طويل لم يسمع شيئاً ـ بدا وقتاً طويلاً جداً ـ دق بعنف، اختفت الدقات في الردهة المزدحمة دون صدى، ولم يسمع صوتاً، دق الباب بكعب حذائه ثلاث مرات، شعر باللوح الخشبي أعلى إطار الباب يهتز بشدة وسمع صوت تراب وحصى يتساقط. فجأة جاء صوت من باب على اليسار الباب الذي كان يؤدي إلى غرفة المرأة، وصعقه أن يسمع وقع أقدام رجل. فتح الباب، وظهر منه وجه، وجه عريض شاحب، وجه رجل فمه مفتوح في غضب وعصبية. كان ذلك شيئاً يزعجه عادة وكان من الصعب تحمله. لا يمكن أن ينسى أي وجه. كل الوجوه كانت تتبعه. وبمجرد ظهورها كان يتعرف عليها. كانوا ينسلون إلى مكان ما من لاوعيه وعلى نحو خاص، أولئك الذين كان قد رآهم مرة واحدة. يسبحون مثل سمك رمادي كالح اللون وسط طحالب بركة مظلمة، أحياناً كانت رؤوسهم الصامتة تقترب من السطح ثم تطفو لتقف أمامه واضحة وعلى نحو لا يمكن اجتنابه عندما يراها بالفعل مرة أخرى. وكأن صورهم تنهض أمامه بوضوح في المرآة، بوضوح وحِدّة، عادوا جميعاً: وجه محصل الحافلة الذي ناوله تذكرة منذ

سنوات، عاد على شكل وجه جندي ينام بجواره في عنبر المرضى. كان القمل يزحف من الضماد حول رأس الرجل، ويسرح في الدم الجَديد أو المتخثر، ويجول بحرية على رقبته ووجهه الفاقد للوعي. رآه تتسلق أذنيه كائنات جسورة غير هيابة تنزلق وتسقط ثم تقف على كتفه مرة أخرى، تقف على أذن الرجل، الرجل الذي كان قبل ذلك بسبع سنوات وعلى مسافةِ ثلاثة آلاف كيلو متر غرباً. قد باعه تذكرة في حافلة. وجه ضيق كله معاناة، في ذلك الماضي السحيق، كان وجهاً متورد اللون، متفائلاً.

أما هذا الوجه العريض الشاحب، وجه الرجل الذي فغر فاه بأقوى ما يستطيع فلم يتغير. لا الحرب أثرت عليه ولا الدمار، السطح الذي يشبه العجين، الهدوء المجرد، والعيون التي تعرف أنها تعرف شيئاً، والشفاه المحددة بشدة والمعبرة عن قرف شديد، وفي ضوء الردهة الشاحب، بدا له الوجه رأس سمكة شبوط كبيرة كالحة اللون، ارتفعت إلى سطح البركة واثقة، صامتة، بينما اليدان متدليتان في ظلام الغرفة الكثيف.

كان ذلك هو السيد الدكتور البروفيسور «فيشر» أحد زبائن المكتبة التي تعلم فيها حرفته والذي سمح له بأن يخدمه مرة واحدة أثناء تدريبه. «فيشر» كان لديه فكرة عن الكتب، وكان عالم لغة ومحامياً ومحرراً في إحدى الصحف، وكان لديه ميل عميق لدراسة «جوته» وفي

تلك الأيام كان يعتبر المستشار الثقافي غير الرسمي للكاردينال. كـان قـد رأى ذلك الوجه مرة واحدة عن قرب. مرة واحدة لاغير. وفيما عدا ذلك كان يراه وهو يمر أمام المحل ويختفي في مكتـب الـرئيس، وكـان ذلـك منذ ثماني سنوات، ولكنه تعرف عليه في الحـال، اهتـز الطـابور بشـدة مثل البرق، وبرزت منه هذه الرأس.

سأله الوجه: ماذا تريد؟

– خبزاً. وقدم لـه الإيصـال كمـا لـو كـان أمـام موظـف في دكـان أو مصرف.

– لم يعد هناك خبز.

لم يفهم. فقال: خبز، ولكن الراهبـة، المفـروض أنـني، رد الصـوت بهدوء وثقة: لا، لا يوجد خبز.

والآن ظهرت اليـدان مـن الأعمـاق، يـدان طويلتـان بأصـابع دقيقـة وأمسكت بالإيصال الذي يعني رغيف خبز، الأصابع مزقـت الإيصـال، ليس مرة واحدة مزقته طولاً وعرضاً أربع أو خمس مرات. وكررت ذلـك بتلذذ. وتطايرت المزق الصغيرة البيضاء وانتثرت على الأرض مثل فتـات الخبز.

وقال الصوت: هذا هو خبزك.

مكسه ٢٨٨؟

لم تكن المزق الصغيرة قد هبطت على الأرض عندما صفق الباب بشدة. قطعة ضخمة من الخشب تهتز. والإطار الزجاجي يرتج ويتساقط الطلاء من جميع الجوانب.

وقف هناك فترة طويلة، كان يحاول أن يحس بشيء، بكراهية، أو غضب، أو ألم، ولكنه لم يشعر بشيء. فكر، ربما أكون قد مت. ولكنه لم يكن ميتاً، عاد إلى وعيه تماماً عندما ركل الباب وآلمت الضربة إصبع قدمه، لم يكتشف في نفسه كراهية أو غضباً، اكتشف الألم فقط!

الفصل العاشر

عندما عاد «فيشر» إلى الغرفة أدارت «إليزابيث» وجهها من الحائط وسالت في هدوء: من؟

- «شحاذ». وجلس.

- هل أعطيته شيئاً؟

- لا.

تنهدت ثم أدارت وجهها إلى الحائط ثانية، كانت النوافذ مفتوحة، ومن خلال إطاراتها السوداء الواسعة كانت تبدو الأنقاض وهي تشبه الظلال: بنايات سوداء من الدخان، جمالون متصدع آيل للسقوط، أكوام من الحجارة والحصى والملاط الجاف، وبقع قليلة من الخضرة.

- لم تعطه شيئاً، من كان ذلك الرجل؟

- لا أعرف، شخص ما.

راحت تبكي في هدوء أما هو فأرهف السمع، لم تكن قد بكت حتى الآن.

رأى رقبتها النحيلة وشعرها المهوش وأكتافها المرتعدة، كان يستمع إلى صوت نحيبها الغريب مدهوشاً. تأثرها على هذا النحو لما حدث كان شيئاً غير مفهوم بالنسبة له.

قال: لا تغضبي، أريد أن أصل إلى حل مهما كان نوعه، لا يهمني ما تفعلين رغم اقتناعي بأن المال شيء مهم. لا يجب أن نتناول المسألة بأسلوب عاطفي، وكما قلت فإن حمانا سيرضى إن أكدت له شفهياً أن «ويلي» غير مورث بوصية، مؤقتاً. وتنازلت عن السيطرة على ثروته وممتلكاته شفهياً فقط. أتفهمين؟ ولا داعي لأن تطلبي شيئاً أكثر من ذلك وإلا. ثم توقف عن الكلام لأنها أدارت وجهها نحوه فجأة فأدهشته نظرتها المليئة بالتصميم. «ستكون النتيجة نزاعاً قضائياً ـ وضحك ـ ولا أعتقد أنك يمكن أن تكسبي مع الدليل الحالي».

– ربما حاولت أن أجد ذلك الرجل الذي أحضر لي وصية «ويلي»، ثم احمر وجهها خجلاً عندما تذكرت ما حدث بينهما.

– طبعاً، ويحتمل ألا تجديه. ثم، ماذا تريدين أن تعرفي منه؟

– المكان الذي أعدم فيه «ويلي». احتمال أن يكون قد دفن هناك أيضاً، لابد أنهم قد دفنوه.

– لا بأس. لا بأس بالمرة.

وصمت يفكر ثم سأل: قولي لي إذن: هل تتركين الآن هذا الهراء بخصوص التنازل عن النقود مؤقتاً وترضين بألف مارك في الشهر و... ».

– تقصد نوعاً من وقف إطلاق النار، لا بأس بالنسبة لي، ثم بصوت هادئ: ليتني أستطيع أن أفعل ما أريد في هذه اللحظة، أن أصفعك على وجهك.

– هذا ليس من أخلاق المسيحية.

– أعرف

وشعرت كما لو أن ناراً داخلية قد جففت دموعها فجأة، أو لعلني، لست متأكدة إنني أعرف. أعتقد أن مسيحيين كثيرين قد صفعوا كثيرين مثلك على وجوههم. ولم يكن ذلك أيضاً من أخلاق المسيحية، لكن هناك مشكلة واحدة فقط: أنا لست مسيحية جيدة، ولكنهم كانوا... ».

– صحيح. ما لديك هو دوافع إنسانية، والدوافع الإنسانية ليست بديلاً عن العواطف الدينية التلقائية.

– نعم! ونظرت إليه نظرة احتقار «تستطيع أن تفسر أي شيء، نوع من البشر يمكنه تفسير أي شيء وكل شيء، ولكني أتمنى أن يجيء وقت ليفسر لك أحد فيه شيئاً أو شيئين.

– أحسنت! ولكني أتمنى أيضاً أن يكون هناك احتمال معقول، لأن أكون مسيحياً جيداً، وهناك والحمد لله غيرك في الموضوع، ثم ضحك بهدوء. استدارت إلى الحائط وفكرت، لابد أن أصفعه على وجهه.

قال وهو يفتش في جيبه عن سيجار: ولكن بالمناسبة ، لماذا هذه الرغبة القوية في صفعي؟

لم ترد، راح يشعل السيجار وهو يبحث عن مكان ينقر عليه بأصابعه ولكن الكومودينو كان صغيراً ومساحته يشغلها تمثال صغير للمسيح مصلوباً وكوب ماء وصحن وبقايا خبز. راح ينقر على ذراع الكرسي ولكن سطحه كان صغيراً كذلك.

وكانت أصابعه تنزلق وشعر بحمرة الخجل، الأمر الذي جعله أكثر توتراً.

سألها: لماذا؟

– «لأنك لم تعط شيئاً لذلك الشحاذ، ولكن دعنا من ذلك الآن». ثم قالت بسأم: أوافق على أن أعمل هدنة معك.

قال: لن تتركينا نحصل على الوصية لفترة بأي طريقة. أقصد.

استدارت بسرعة، وبقوة. وصدمه أنها كانت تضحك. قالت «لا، وحيث إنها وثيقة عديمة القيمة. فلن يكون لها فائدة بالنسبة لك».

– يمكن أن نتأكد من ذلك، وعلى أية حال هناك توقيع شهود عليها».

– نعم.

قالت: تستطيع أن تذهب.. أنا مرهقة. مرهقة جداً.. ولم أنم ليلة أمس بالمرة.

وضع السيجار في فمه وجذب معطفه.

سألته: وبالمناسبة.. كيف حال إليزابيث. ابنتي بالمعمودية؟

جعلته نبرة صوتها يقف في مكانه، والمعطف معلق على كتفيه، تناول السيجار من بين شفتيه ووضعه على حافة الكومودينو واقترب من السرير وسألها بكل هدوء ممكن: كيف عرفت أنها مريضة؟

– هل هي مريضة؟

– نعم.

– ماذا بها؟

– وقع لها حادث سيارة وهي على دراجتها ونتج عنه نزيف داخلي شديد.

– «نزيف داخلي شديد؟! هذا أمر سيء جداً بالنسبة لحالتها».

ثم بصوت خفيض: ماذا يعني ذلك؟».

نادراً ما كان يفقد السيطرة على نفسه، لا يفقدها أبداً عندما يتحدث إلى امرأة، ولكنه يشعر الآن بوجهه كله يرتعش وبيديه يغطيهما العرق.

قالت: أقصد أنها حامل، كانت حامل.

جذب معطفه بسرعة، وتناول السيجار «أنا اعتقد أنك مجنونة فعلاً، ما رأيك؟».

أومأ بنفاد الصبر لأنها بدأت في الصراخ مرة أخرى، كان يكره التعبير الصريح عن العاطفة الداخلية.

قالت: أعتقد ذلك. بالطبع. وأصدق أي شيء عن رجل يطرد شحاذاً من على الباب. اذهب الآن»، وخرج مسرعاً.

الفصل الحادي عشر

أعطت البطاقة للحارس وراقبت وجهه المستريب وهو ينحني فوقها محدقاً، بدا أنفه الكبير المحمر مثبتاً في جبهته بإحكام، والجبهة ضائعة في رأس أصلع مائل للصفرة. ارتفع الوجه حاداً مستديراً أمامها مرة أخرى. قال الصوت: غرفة رقم 15 عمليات «ناحية اليمين».

.اتجهت إلى اليمين مارة بغرف المرضى المغلقة، انحرفت يساراً ووقفت أمام باب ضيق، مكتوب على طلائه المشقق بقلم أحمر «عمليات» طرقت الباب فأجابها صوت: ادخل!. في الداخل كان كل شيء هادئاً، راهبة تنحني فوق وعاء تعقيم يغلي ويتصاعد منه البخار وتتناول بعض الأدوات بملقط، والطبيب يجلس منهكاً على كرسي يدخن، استنشقت راحة التبغ القوية بنهم ولأول مرة شعرت بالجوع. إحساس غريب، مزيج من الغثيان والإرهاق يعلو بداخلها على شكل تثاؤب واهن فلم

تسمع سؤال الطبيب الذي كرره للمرة الثانية باقتضاب: ماذا تريدين؟ بينما كانت تغلق فمها مرة أخرى بجهد جهيد.

اقتربت منه وناولته البطاقة، قال: نعم، عفواً، السيدة «أونجر»؟

– نعم.

أخذ السيجارة من فمه ومشى نحو مكتبه وأخرج مجموعة بطاقات بنية اللون من صندوق خشبي.

– نعم، «أونجر»، كانت عينة الدم ممتازة، لم يظهر بها أي شيء سلبي، حددت لك موعداً اليوم لأننا. هل مازلت تريدين إعطاء دم، حتى الآن؟

– طبعاً!

– لا بأس، مر أسبوعان ـ وهز كتفيه متنهداً ـ أشياء كثيرة تغيرت منذ ذلك الوقت ربما جعل المرء يتراجع عن العرض، إذن أنت مازلت تريدين؟!

– نعم.

حسناً، يمكنك أن تخلعي ملابسك، الجزء العلوي.

جذبت معطفها وفكت أزرار البلوزة ووضعتهما على سرير العمليات بجوارها.

– حسناً، هذا جيد. شعرت بيده القوية تختبر عضلاتها وتكشف على النبض ثم أجفلت عندما لمست السماعة الباردة صدرها.

قال الطبيب: بالمناسبة يا سيدة «أونجر» ألم تتركي معطفك معلقاً هنا؟

- بلى.

- هل استعدته؟

- نعم.

- رجل أمين.

- نعم أمين.

أزاح السماعة، هز رأسه قائلاً: لا توجد مشاكل، صحتك العامة لا بأس بها، يمكنك أن ترتدي ملابسك. ماذا كانت الفصيلة؟

- O.

- حسناً! يمكن أن أستخدمك هذا الصباح، هل هذا يناسبك من أجل «فيشر»، ثم سأل الراهبة: ما رأيك؟

رأت قلنسوة الراهبة تهتز وهي ترتدي بلوزتها. نظر إليها الطبيب نظرته المتعبة المليئة بالرثاء. «أنت محظوظة، لقد وعد السيد «فيشر» بمكافأة خاصة لمن يعطي دماً لابنته. هذا غير الثمن المعتاد بالطبع، كم كان المبلغ يا سستر؟

قالت السستر: ألف وخمسمائة مارك.

ووضعت الغطاء السميك الثقيل على وعاء الأدوات الطبية واستدارت: ألف وخمسمائة مارك، السيد «فيشر» رجل غني!

قال الطبيب: «صياد ثروة» وضحك وهو يطفئ سيجارته «وليس صياد نساء».

هزت الراهبة رأسها ونظرت إليه مستاءة: عليك أيضاً أن تبقي هنا حيث أن نقل الدم لابد أن يتم في العاشرة، أليس كذلك؟

قال الطبيب: نعم، أنا جاهز في أي وقت، هل تناولت إفطارك؟

قالت «ريجينا»: لا.

– هل يمكن أن تعطي هذه السيدة شيئاً لتأكله؟

قالت الراهبة: لا، مستحيل. واهتزت قلنسوتها بشدة أكثر من مرة.

– ربما كمقدمة لما ستحصل عليه، ربما ساعدها ذلك حتى لا تشعر بالإغماء أثناء نقل الدم.

قالت الراهبة: حقاً، لا يمكننا، صدقني، الدفع يتم بكوبونات وهي ليست من عندنا، من عند إدارة الشؤون الاقتصادية، وكل ما تحصل عليه من هنا إيصال.

هز الطبيب كتفيه «إذن سيكون من الأفضل أن نأخذ دماً من الرجل الموجود في الغرفة A، فلديه على الأقل شيء يأكله..

قالت «ريجينا» بسرعة: لا، لا.

نظر كلاهما إليها بدهشة.. «أنا أريد أن أعطي دماً، لن يكون هناك أي مشكلة.. كل شيء جيد بالنسبة لي، ما رأيك يا سستر؟

هزت السستر كتفيها.

– فلنبدأ إذن.

عندما غادرت السستر الغرفة، أشعل سيجارة أخرى وقال: يمكن أن أعطيك واحدة، بكل سرور، ولكن لا أعرف. ما رأيك؟

– لا شكراً، السيجارة ستجعلني أشعر بالغثيان. شكراً.

كان استنشاق الدخان يجعلها تشعر بالدوار، والجوع أصبح الآن مزيجاً من الصداع والمغص والإرهاق. كانت نوبة الصداع قد هاجمتها فجأة، الألم حاد ونافذ ولا تعرف له سبباً.

راحت تقوم وتضع يدها في فمها في كل مرة وأمعاؤها تنقبض انقباضات تجعلها تفتح فمها بشدة لدرجة تجعل الفك يوشك أن ينكسر، كانت تراقب كل شيء وهي في غاية التعب، والطبيب يغسل يديه على حوض رخامي. تناول سيجارته ووضعها على الرف الزجاجي.

قال: «فيشر» رجل غني بالفعل ـ ثم وهو يجفف يديه ويستدير نحوها ـ بمكنه ببساطة أن يعطي شيئاً من أجل فطور شخص يقدم دماً لابنته.

– ماذا بها؟

– لا أستطيع أن أقول لك، غير مسموح لي، ليس طيباً ولا أستطيع أن أقول الكثير ـ أكثر من هذا ـ هل أعطيت دماً من قبل؟

– لا.

– «لا تخافي إذن، ألم بسيط، سأفتح الوريد، احفظي أسنانك على بعضها»، ثم قال متنهداً «ضعي النقود والإيصال في جيبك، حتى لو... ـ ولم يكمل ـ لا تقلقي، الأشياء تبدو أسوأ مما هي عليه بالفعل.

سألت: بالنسبة للنقود، هل سأحصل عليها هنا؟

– لا، عليك أن تأخذيها من ذلك الرجل، «فيشر» صياد الثروة ذلك لأنه، ـ ثم صمت فجأة ـ

كانوا قد جاؤوا بالسرير المتحرك، كل ما عليه وجه شاحب. شديد الشحوب، شعر أسود جميل فوق جبهة بيضاء كالثلج وعينان ضيقتان لهما بريق، كان جسمها بالكاد يملأ التجويف البسيط في الفراش لدرجة أن الغطاء بدا كأنه أملس.

قال الطبيب: هنا، وأشار للراهبة لتقف بجوار سرير العمليات وطلب من «ريجينا».. تعالي من فضلك.

وقفت «نامي هنا وحرري ذراعك اليمنى تماماً، فكت أزرار كم البلوزة وجذبت الغطاء على كتفها ولفته بسرعة.

قال الطبيب: حسناً، هذا جيد.

شعرت بالراحة عندما رقدت، خف الصداع قليلاً، وعندما وضعت السستر وسادة تحت رأسها شعرت بالراحة أكثر.

– شكراً يا سستر.

لاحظت أن وجه الطبيب كان مضطرباً، كان ينقبض قليلاً في تعب واضح وكانت زوايا فمه ترتعد.

قال لها: اضغطي هكذا. كان يفتح يده ويغلقها مباعداً ما بين أصابعه وهو يفردها بشدة، وكانت تفعل مثله وهي تراقبه يحدق في ذراعها.

فجأة يقول: هذا جيد، هذا جيد، انظري كيف يظهر. سيكون الدخول سهلاً، الآن هنا.

كان ينحني فوق نقالة الفتاة وهو يقول: اضغطي. اضغطي. بشدة يا آنسة «فيشر»، هكذا، ومرة أخرى يريها كيف يجب أن تفعل، و«ريجينا» تحدق جيداً في الوجهين اليائسين. وجه الطبيب ووجه الراهبة وهما ينظران إلى الذراع النحيلة وهي ترتفع في ضعف واليد الصغيرة تضغط بشدة.

قال الطبيب: أبطأ، أبطأ، هكذا، وفرد يديه القويتين الحمراوين ببطء. مرة أخرى كان يراقب وجه الفتاة ويتنهد! «لا أرى شيئاً. ليس في الأمر أية مفاجأة ولنبدأ على أية حال.. لا داعي للانتظار. هيا. قال لريجينا: أديري رأسك جهة الحائط.

فعلت كما قال لها وبدأت تنظر إلى الحائط الأخضر، كانت شعرات الفرشاة ما تزال لاصقة به بعد طلائه. خطوط سوداء دقيقة واضحة مثل النقوش القبيحة، في الوسط من ذلك كله تمثال كبير من الخزف

للعذراء، قطعة من الطين المحروق صنعت دون براعة، العذراء تحمل الطفل، تغطي صدرها هالة كبيرة من السيراميك مبالغ في حجمها بحيث لا يظهر منها سوى الوجه. كانت «ريجينا» في غاية الإرهاق، تتصور أن بإمكانها أن تنام، عيناها مغمضتان تقريباً وهي تحاول جاهدة أن تبقيهما مفتوحتين: طافت أمامها صورة العذراء في اللون الأخضر الواهن القبيح وكأنها تطوف في الماء.

فجأة تحرك جسمها إلى اليمين بمجرد أن أحست بالإبرة تدخل في ذراعها، رأت أن الطبيب كان قد أدخل طرف أنبوب مطاطي في وريدها، مستخدماً إبرة عريضة مسطحة مسطوفة، كما «شكل المكوك تقريباً، «اضغطي». ضغطت وشعرت برباط مطاطي يلتف حول الجزء العلوي من ذراعها، شمت رائحة الراهبة النظيفة، لابد أنها كانت تقف إلى جوارها.

قال الطبيب: بسرعة، اربطي بشدة.

ولكن رشاش الدم كان يتدفق غزيراً شديد الحمرة على المعطف الأبيض. اللعنة!. «ولكن الرباط الضاغط كان قد أحكم حول ذراعها وأدركت أن النوم مستحيل، تركت رأسها ناحية اليمين وسمعته يقول «اضغطي»، كررها عدة مرات.. يدخل الإبرة ويخرجها، الوجه غطته حبيبات العرق واحمر لونه بجوار الوجه الشاحب للراهبة التي كانت تمسك الآن بالأنبوبة لتوصلها بزجاجة مستديرة لها شكل ساعة الرمل.

كانت تبكي بهدوء عندما فكوا الرباط الضاغط من حول ذراعها، وتنظر صامتة وباهتمام للأنبوبة الرخوة وهي تنتفخ، رأت دمها ينبض في الوعاء الزجاجي، سائل داكن اللون يتجمع ويرغي ويتدفق بسرعة وقوة.

قال الطبيب: اربطي. ورأت كيف يعلو المستوى بحركة نبض هادئة ثابتة في الأنبوبة الزجاجية الصغيرة والأنبوب المطاطي الموصل إلى ذراع الفتاة.

عملية بطيئة، وتشعر بتعب شديد لا يحتمل كان يختفي كلما عاد الدم ليملأ ذراعها التي لا تحس بها. الدم الذي كان يتجمع في الأنبوبة متدفقاً منها.

حسناً: همهم الطبيب أكثر من مرة، «حسناً»، ورأت على وجهه تعبيراً بدا لها غريباً، تعبيراً لم تكن تتوقعه. تعبير فرح، فرح حقيقي.

«حسن، لو أنها استطاعت أن تأخذه!».

أحياناً كانت تريد أن تدير رأسها ناحية اليمين تماماً لكي ترى وجه الفتاة، ولكنها لا ترى سوى قلنسوة الراهبة الزرقاء النظيفة، وعندما نزعوا الأنبوب المطاطي والإبرة من وريدها صرخت، وسمعت الطبيب وهو يقول: حسناً هذا أمر جيد بالفعل!

شعرت وكأنها تدور في دائرة، ببطء في البداية، قدماها نقطة ثابتة في المركز، وجسدها يدور بسرعة متزايدة.

مكتبة ٢٨٨

شيء شبيه بما نراه في السيرك عندما يمسك مبارز قوي بفتاة من كعبيها ويدور بها مثل الدوامة.

في البداية كان يمكنها أن تميز الجدار الأخضر الباهت ومكان التمثال، والضوء الأخضر والأبيض يتناوبان أمام عينيها. ولكن سرعان ما تداخلت الحدود واختلط اللونان وأصبح ما يدور أمامها هو الأخضر أبيض، أو لعلها هي التي كانت تدور أمامه بعنف. لا تعرف، زادت الألوان من سرعتها فتدفقت معاً أما هي فكانت تدور أفقياً وفي اتجاه الأرض في وميض لا لون له تقريباً. كانت في نفس الوقت تشعر بألم في أذنيها، في جسدها، في حلقها، كما لو أن للجوع، ذلك الوحش الذي لا يهدأ في معدتها قوة مغناطيسية لجذب آلام جديدة!. عجز كلي! كأنها مسلوخة عن جلدها. صدمها أنها لن تفقد الوعي. عندما هدأت الحركة فقط لاحظت أنها كانت ترقد في نفس المكان، رأسها هو الذي يدور. رأسها فقط كانت تشعر طوال الوقت بأنه ملقى إلى جوار جسدها المفصول عنها، أحياناً عند قدميها وأحياناً أخرى في مكانه الطبيعي فوق رقبتها. بدأ رأسها الآن وكأنه يدور حول جسدها، ولكن ذلك أيضاً لم يكن صحيحاً. تحسست ذقنها بيديها ولمستها. البروز العظمي. حتى عندما بدا رأسها ملقى عند قدميها كانت تستطيع أن تتحسس ذقنها. ربما كانت عيناها فقط لا تعرف، الشيء الوحيد الأكيد كان الألم الذي لا تستطيع أن تقسمه إلى ألم في الحلق أو الأذن أو الجسم أو الرأس. المغص والشعور بالغثيان، حموضة شديدة وحادة

ترتفع في الحلق وتخمد مثل البارومتر ثم تصعد مرة أخرى. لم تستطع أن تغمض عينيها، وعندما أغمضتهما لم يكن الرأس هو الذي يشعر بالدوار، بل الصدر والساقان أيضاً.

وعندما تبقيهما مفتوحتين يجعلها الوعي ـ الذي لم تفقده ـ تدرك أن ذلك الجزء من الجدار، أمامها كان كما هو مساحة من اللون المخضر وإطار بني معلق على أرضيته الخفيفة شعار لا تستطيع أن تقرأه. الحروف مضغوطة وغير واضحة وتشبه لوحة الكشف عند طبيب العيون، أحياناً تنتفخ بشكل مقزز مثل النقانق الخضراء، وتتمدد بسرعة بحيث لا يمكن تمييز شكلها أو تبين معناها. تبتعد. تصبح غير مفهومة، وفي لحظة واحدة تتحول إلى شيء أشبه بمخلفات الذباب.

كانت تلك المساحة من الجدار كما هي.. لون أخضر شاحب إطار بني، كتابة، تتحول من الدقة إلى الضخامة. كانت تدرك أنها لا يمكن أن تدير رأساً حتى وإن تصورت ذلك.

جفلت عندما وجدت أنها ما تزال راقدة في نفس المكان دون أن تتحرك بوصة واحدة.. وأنها ساكنة تماماً، كل شيء هادئ. وفي مكانه. رأت صدرها، وسير الحذاء البني القذر الملقى في الأسفل. ووقع بصرها فجأة على الكتابة فوق الحائط «طبيبك يساعدك حين يساعده الله».

سمعت الطبيب يقول: مشكلة! سوف تتقيأ حالاً فكرت، «ليتني أستطيع» ولكن طعم الحموضة كان مازال يرتفع إلى نقطة معينة في

حلقها ويرتد. تحبسه نوبات تشنج لا تستطيع أن تتحكم بها. كان الألم في رأسها شديداً، نغاذاً، وكأنه تجمع في نقطة معينة فوق حاجبها الأيسر وراح يهزها بعنف، تريد أن تنام، ليتها تنام.

لا ترى الطبيب، ولن تجرؤ عل محاولة تحريك رأسها، رائحة سيجارته المنتشرة في الجو تشق طريقها في وعيها اليقظ كما كان يفعل الشعار: طبيبك يساعدك حين يساعده الله، ثم أغمضت عينيها، بقيت كلمة «الله» فيها، بدت في البداية مجرد حروف، حروف كبيرة في الظلام خلف جفنيها المنسدلين. بعد ذلك لم تعد ترى الكتابة، ولكنها بقيت بداخلها ككلمة.. غاصت بداخلها عميقاً، عميقاً، لم تصل إلى القاع، وفجأة كانت معها مرة أخرى على السطح، ليست كتابة، ولكنها كلمة «الله» الله وحده. يبدو أنه هو الذي كان قد بقي معها عبر كل الآلام التي لم تستطع أن تفصل فيما بينها في عقلها، أحست بأنها بدأت تبكي، والدموع الحارة تتساقط ـ لأنها لم تكن تشعر بها على ذقنها أو رقبتها ـ عرفت أنها لابد أن تكون نائمة على جنبها.

الإجهاد الآن أقوى من الألم الذي يبدو أن الدموع قد خففت منه، والآن تعرف أنها لن تستطيع أن تنام!.

الفصل الثاني عشر

أزاح «فيشر» الستارة جانباً ووضع التمثال في النور فوق مجموعة من الكتب السميكة فأصبح مرئياً من جميع الزوايا، ابتسم. لم يغفر لنفسه ذنب عدم الانتباه إليه طوال ذلك الوقت. كان قد بقي لعدة سنوات واقفاً في كنيسة لا تبعد عن منزله سوى خمس عشرة دقيقة، ولم يكتشفه! وبالضبط، كان مختفياً في غرفة المقدسات وملابس الكهنة وسط مباخر وأدعية وقرابين من عصر الروكوكو وغيرها من التماثيل الجصية، لكن هذا التمثال الذي ينتمي إلى القرن الخامس عشر كان شيئاً مختلفاً، جميلاً. ولا يمكن التكهن بقيمته المادية بسهولة، أما امتلاكه فكان شيئاً رائعاً. كان «فيشر» سعيداً، ابتسم بهدوء، ولأول مرة يخطر في باله أن الشعور الديني الكامن لابد أن يكون هو سبب الإعجاب بالعذراء بين عامة الناس. العبادة التي كان دائماً ينفر منها ولا يدري لذلك سبباً.

التمثال يقف أمامه الآن في النور بما عليه من ألـوان حمـراء وذهبيـة تزينه. بسيط! الوجه بالفعل بتولي جميل تعلوه أمومة واضحة لم يعرف أبداً ولم يلحظ أبداً أن تلك السمات الثلاث كان من الممكن أن تجتمـع، كانت واضحة هنا. بتولي، جميل، وأمومي. مع مسحة معاناة لا تشـوه البتولة ولا الجمال ولا الأمومة.. كان قد عرف تلك السمات المثلثـة مـن كتب التراتيل والترانيم، ولكنه لم يكن قـد رآهـا أبـداً مصـورة. في تلـك اللحظة، ورغم أنه لم يكن يميل إلى الإغراق في العاطفة، بدا له التمثـال أجمل مقتنياته الفنيـة، تلـك القطعـة مـن خشـب الزيزفـون. المحفـورة والمطلية والتي لا يزيد ارتفاعها عن جزء من أجزاء دائرة المعارف، والتي كان قد تم استخراجها من بين أنقاض غرفة المقدسـات بمـا عليهـا مـن خدوش خفيفة في ألوانها الحمراء والذهبيـة الداكنـة. دار حـول المكتـب ببطء يتفحصها من جميع الزوايا عن كثب، لا توجـد بهـا أيـة عيـوب واضحة، لاشيء غير طبيعي أو مبالغ فيه في شكلها. في جمـال التمثـال الطبيعي، في انسدال الرداء، في وضع الذراعين، في ثنية الرقبة وما فيها من شموخ، في رفعة الرأس. ذلك الوجه بجماله غير العادي والذي يعبر عن الثـالوث المتنـاقض، وقـد بـدا لـه لأول مـرة بعيـداً كـل البعـد عـن التناقض. حتى منظر الطفل في يديها كان متعة للعين، رغم أنـه بصـفة عامة لم يكن يحب صور المسيح طفلاً، كان يراهـا غـير موفقـة، أحيانـاً فيها مبالغة في الجمال أو غير متقنة الصنع أو تافهة أو منفرة.

اقترب، وتأمل الطفل بين يدي العذراء المباركية عن كثب، كان بالكاد أطول من سبابته بقليل، ورغم كل شيء كان عليه أن يتغلب على عدم إعجابه.

كان في صميم قلبه يعترض على الفنانين الذين يضعون أطفالاً صغاراً بين أيدي تماثيل صغيرة كتلك، حتى وإن كانت النسب صحيحة، دائماً تذكرة بالأجنة.

عض شفته السفلى، جذب كرسيه على عجل وجلس، أحس بشحوب ويتملكه شعور آخر، شعور هو خليط من الضجر والقرف، كان بصره ما زال ملقى على التمثال الصغير ولكنه لم يعد يراه. جفل عندما سمع طرقة على الباب، أخذ التمثال بسرعة من على الطاولة ووضعه على الرف العلوي من المكتبة خلف صف من المجلدات الضخمة حيث اختفى تماماً.

– ادخل.

وبمجرد أن رأى بروفة الطباعة في يد سكرتيره ظهر الضجر على وجهه مرة أخرى، وعلامات اليأس المزوج بالمرارة.

قال السكرتير: البروفات يا دكتور، بروفات الطبعة الأولى من «حمل الله». لقد جاءت للتو. حدق الشاب فيه ملياً منتظراً ردة فعل، شاب نحيل شاحب، يبدو مثقفاً وعلى وجهه علامات الورع، صفتان تروقان له، ولكنه ينفر منهما اليوم.

- «شكراً، هذا جميل»، ثم تناول منه الأوراق. من انحناءة الظهر الغريبة ووضع الرأس تستطيع أن تقول إن الشاب شعر بالإساءة. وبعد أن غادر، كان «فيشر» يفكر، على أية حال فإن هذه الطبعة الأولى من «حمل الله» تعتبر إنجازاً، نقص الورق، صعوبة الحصول على ترخيص، البحث المضني عن مؤلفين ومطبعة جيدة في المدينة شبه المهجورة، كل ذلك قد تم التغلب عليه في ستة أسابيع بفضل مساعدة ذلك الشاب المخلص، وفي خضم ذلك كله جاء يوم الاستسلام جالباً معه مصاعب سياسية جديدة لم تكن في الحسبان.

ورغم كل شيء أمكنهم أن يصدروا الطبعة الأولى من «حمل الله».

تناول أوراق البروفة، وتركها تنزلق من بين أصابعه واحدة تلو الأخرى بضيق شديد. حسناً، سيقوم السكرتير بذلك كله. يقرأ البروفات، يرتب المادة في الصفحات.

وضع الأوراق إلى جواره واستبقى فقط صفحة الغلاف، كانت تحمل نقش «حمل الله» التي كانت تعلو الصفحة لمدة نصف قرن حتى الآن، شيء قديم من سقط المتاع يمكن أن تجده في كل مكتبة وفي مستودعات الكتب لدى الأسر الكاثوليكية. تراه في الحقائب تجده مغطى بالتراب فوق الخزائن والمستودعات، ملايين النسخ من الكتب تحمل ذلك النقش الصغير الذي كان عبارة عن حفر مروع: حمل مجزوز مهزول، ذيله يتدلى في خنوع، معلق في رقبته راية علم صغيرة. مثلث يحمل صليباً.

مكتبة ٢٨٨

«يرجو نيافة الكاردينال أن تقبلوا هذا التمثال الصغير هدية لنجاحكم ـ رغم كل تلك الصعاب ـ في أن تجعلوا حمل الله ينهض على أقدامه مرة أخرى». كان القسيس قد أبلغه «إننا ننتظر الكثير من هذه الشركة الصحفية التي تجيء بعد الحرب».

نحى صفحة الغلاف جانباً كذلك، والآن فقط خطر له أنه قد ورث كنزاً صغيراً لأنه استطاع أن يجمع ويطبع مجموعة قليلة من المقالات الهزيلة تحت ذلك النقش الصغير. ولكن سخرية الواقع لا تجعله يشعر بأية سعادة.. كان متعباً. الضجر واليأس كانا يمتزجان بشدة. دفق من الركود والبلادة لا نهاية له. ورغم مرارته لم يكن له طعم! !

رن جرس الهاتف، تناول السماعة ليرد، جاءه صوت:

– مستشفى سان فانسان.

– «نعم» ـ وهو مأخوذ فجأة ـ ماذا؟!

قال الصوت المجهول: إنها بخير، ابنتك في تحسن، هي الآن أفضل كثيراً، أجرى لها الدكتور «وينر» عملية نقل دم ونجحت العملية تماماً، مساء اليوم سوف نعرف إن كانت حالتها سوف تستمر في التحسن.

هتف: شكراً يا سستر، شكراً جزيلاً.. استأذنكم في الحضور هذا المساء، تحياتي إلى ابنتي من فضلك.

– بالتأكيد! كنت قد أشرت إلى أنه ستكون هناك مكافأة إضافية لمن يعطي الدم، هل تسمح لي بأن أرسلها إليك؟

– طبعاً، أنوي أن أقدم لها ذلك الرمز البسيط لتقديري وامتناني، هل هناك شيء آخر؟

– لا، إلى اللقاء مساء إذن.

– مع السلامة، وضع السماعة. هذه الفرحة المقتضبة تلاشت بسرعة بمجرد أن وضع السماعة وسمع تكة الحامل المعدني. عاوده الإحساس بمثل ماء عميق يقف فيه ويغمره حتى العنق. سطحه الفاتر يرتفع حتى فمه: ضجر، غثيان، ولمسة متعة حسية.

***

في وقت الحرب كانت هناك لحظات تبدو فيها الحياة جميلة، وربما خطرة. مهددة. كان الخطر شبه يومي ولكنه كان جذاباً، لأنه كان محاطاً بحراسة مشددة: ملجأ قوي ضد الغارات الجوية ، نقود، تموين، وثقة في أنه سيكون دائماً في الجانب السياسي الصحيح، دائماً، ومهما حدث! كان عضواً في الحزب بالطبع، وكان قد حضر عدة اجتماعات مع النازيين ـ كان يبدو عليهم أنهم جيدون ـ على طريقتهم طبعاً ـ ولكنه في نفس الوقت كان يحتفظ بشهادة من رئيس الأساقفة بأنه انضم إلى الحزب بناء على اقتراح منه، بل بإصرار منه، ومن أجل مهمة دينية.

ومنذ انتهاء الحرب كانت الأمور تسير في هدوء وسلاسة لدرجة مضجرة، كان كسب المال عملية سهلة، لدرجة أن شعوراً بالغثيان

مكسه ٢٨٨

والاحتقار كان يملؤه كلما مد يده إلى الخزانة ليأخذ حزمة من الأوراق المالية، كان يقوم بعدها، ثم يحزمها ثانية.

التفكير في فتح حساب في البنك كان أمراً مضحكاً. لديه مخزن صغير مليء بالأعمال الفنية، وكان لا يحبها. ورغم قيمتها المادية الكبيرة، تذكر الأيام الماضية، فكر، أشعل سيجاراً، ثم راح يقلب أوراق بروفات «حمل الله» مرة أخرى دون أن يراها، كانت هنا في الماضي أشياء كثيرة تجلب له السعادة! : قراءة «جوته»، تسجيل انطباعاته عما يقرأ، بلورة تلك الأفكار ثم رؤيتها منشورة، أو تأسيس جريدة دينية ورؤيتها وهي تكبر أمامه حتى وإن اضطر في النهاية إلى أن يضع النتاج النهائي في حجر رجال الكنيسة، المملين عديمي الكفاءة، أما في هذه الأيام فلا توجد متعة في أي شيء.

قلب السيجارة بين أصابعه تاركاً نفسه للذكريات، كان ينظر إليها وكأنها صور حياة كئيبة، حياة شخص آخر لا يعرفه، ملل لا نهاية له: حقيبة ضخمة مكتنزة بالصور، لا تعني شيئاً بالنسبة له، رغم أنه كان مضطراً لأن ينظر إليها.

سلسلة لا نهاية لها من أمسيات طويلة بدت تنتفخ أمامه، ملؤها ضجر معدة متخمة وصوت بيانو يعزف عليه شخص متواضع الموهبة، بمجرد أن فكر في زوجته ارتفع بداخله إحساس الكراهية. راح ينخسه. يسخن جسمه للحظات. لحظات معدودة، لأنه كان يشعر نحوها ـ أيضاً ـ بالرثاء، تلك المرأة الجميلة التي تشبه أميرة إيطالية.

مكسه ٢٨٨

الضجر، الغثيان ولمسة متعة حسية: الضجر والقرف والدغدغة الخفيفة التي تثيرها فيه حزم من أوراق البنكنوت. ولكن يدرك أن الضجر هو العنصر الغالب في كل ذلك الخليط، دائماً هو الذي يشغل المساحة الكبرى بين كل العناصر الأخرى: المتعة الحسية، القرف، الغثيان، الرثاء، كلها تبدو وكأنها مكتوبة بحروف صغيرة جداً ومشوهة بسبب ثقلها الرصاصي، للحظة تذكر «العذراء»، ولكن كلمة «الجنين» برزت في نفس الوقت إلى السطح طاردة كل الكلمات الأخرى مستولية على الميدان: قبيحة. لم توقظ الضجر ولا القرف. بل الخوف. كانت تلك الكلمة تنفره دائماً بسبب تكوين حروفها الذي يسبغ عليها البذاءة. كأنها كلمة سرية مأخوذة من لغة أخرى وأقحمت لتعبر عن مجموعة معقدة من المفاهيم، مثيرة للاشمئزاز بقدر ما هي غامضة، رمز مختصر للرعب الذي قد يطفو على السطح ويطارده كلما فكر في «العذراء» أو في أي عذراء، أو في ذلك الوجه بالتحديد. كلمة «العذراء» سوف تلازم كلمة الجنين دائماً.. كلمة جميلة مع كلمة قبيحة تظهر كل منهما الأخرى مثل صور المرايا.

تذكر أنه كان عليه أن يجهز الألف وخمسمائة مارك، وقف، وفتح الخزانة، ترك بابها الثقيل ينفتح، وتناول أوراق البنكنوت من الكوم: عشر ورقات من فئة الخمسين، خمس وعشرون من فئة العشرين.. وخمسون من فئة العشرة.

عاد إلى المكتب، وضع النقود في درج وعندما دفعه ليغلقه أدرك أن «للنقود رائحة»، فقط!.

كان كلما فتح الخزانة شعر بتلك الرائحة، عبق عذب خفيف، لكنه ملوث، مجهول، غني بما يمكن أن يكون له علاقة به، عبق ضعيف، ولكنه ملح، وعندما يفتح الباب كانت تخرج منه سحابة كثيفة عذبة، روث مثير للغثيان يذكره بالماجور، ولكن خطر له أيضاً أنها رائحة الدم، شعر بشيء من الراحة عندما تذكر «إليزابيث». اسمها، ذكراها، أطلقت فيه إحساساً رقيقاً لا يفهمه ولا يستطيع أن يفسره، ومع ذلك ظل يملؤه فرح معزوج بالسخرية، رغم أنه كان قد ثار عليها غاضباً عندما اكتشفت سره الدفين بالطريقة السهلة الماكرة، عندما عرفت كل شيء!

ولكن قلبها للأمور العادية رأساً على عقب جعل المسألة تبدو شاذة وغريبة. بدلاً من أن تستثمر النقود في أشياء ذات قيمة، كانت تحول الأشياء القيمة إلى نقود، وتبددها، باعت مخصصات العائلة. تحصل على نقود العقارات المؤجرة، تسحب من الحساب، تطرح الصور الفنية وقطع الأثاث في السوق السوداء، ثم كرست نفسها للعبة إنسانية للتسلية: توزيع كوبونات الخبز. كان يعتبر هذا التصرف الهيستيري أمراً شاذاً، إلا أنه مثير بسبب أسلوبها في فرضه ويحمل سمات الشذوذ الحقيقي. كانت عنيدة. وكان سعيداً ـ على نحو سري ـ بالحرب التي أعلنتها عليه وعلى الرجل العجوز.

كانت قد قالت: وقف إطلاق النار.

سيكون من الخطر جداً إن هي حاولت أن تجد الجندي الذي أحضر وصية «ويلي»، يمكن أن يجدوا وصية «ويلي» ويعرفوا شخصيته، وبمجرد أن يتأكد موته رسمياً سوف تصبح الوصية قانونية وقابلة للتنفيذ.. طالما أن أحداً لم يثبت أن الختم العسكري أو اسم الضابط قد تم تزويرهما.

دق بالقلم على الأباجورة ليستدعي السكرتير، وعندما ظهر الشاب الخجول الشاحب عند الباب قال بصوت ودي:

– أنا آسف يا «ويندك» كنت مشغولاً بشيء آخر.. أنا سعيد لأن الطبعة الأولى من «حمل الله» ستظهر، لا تظن أنني غير مقدر لما قمت به من الجهد المشترك. هل تريد سيجاراً؟.

ابتسم السكرتير سعيداً، تناول سيجاراً من الصندوق الممدود نحوه وقال بهدوء شكراً يا سيدي الدكتور.

– خذ واحداً آخر. هيا!

وتناول سيجاراً آخر.

– بالمناسبة، بعد قليل ستجيء امرأة أعطت دماً لابنتي، سلمها هذه النقود في مقابل إيصال المستشفى وخذ عليها إيصالاً بمبلغ ألف وخمسمائة مارك..

– بكل تأكيد يا سيدي...

ولم ير رئيسه وهو يضع سيجاره ويسند رأسه على كفيه!.

الفصل الثالث عشر

كان الجزء الرمادي العلوي من الكنيسة قد انهار وسقط بين عمودين هائلين وضوء النهار يملأ الثغرة بينهما فبدت مثل بوابة كبيرة، كتل من الحجارة متناثرة، وأكوام الأنقاض والحصى في كل مكان، ولكنه رأى أنهم كانوا قد أخلوا المكان عند المدخل إلى حد ما، فسار نحو الباب الخشبي المؤدي إلى الداخل ودفعه. تملكته المفاجأة، كان الباب منزوعاً من المفصلات مسنوداً على إطاره فقط وبمجرد أن لمسه وقع ناخيته فأمسك به بصعوبة وركنه في مكانه. في الداخل كان كل شيء ساكناً، طيور تطير، وكان يسمع صوتها. ويرى أفراخها تحدق من أماكن أخرى، سقطت نظرته في الحال على شمعدان ذي شعب. الشمعدان مكسور ولكنه ما يزال معلقاً في قنطرة السقف، والسلسلة التي تحمله تتأرجح جيئة وذهاباً. وعلى الإطار المعدني يقف عصفوراً دورياً، بمجرد

مكسه ٢٨٨

أن دخل طارا من مكانهما، حول الباب مساحة صغيرة كان قد تم تنظيفها وأزيلت منها الأنقاض، وعندما دخل إلى صحن الكنيسة نظر إلى أعلى. الضوء الآتي من الصدع في جانب الكنيسة كان يغطي كل ذلك الدمار المحيط، تماثيل القديسين في الجزء العلوي كانت قد سقطت كلها، القواعد إما خالية منها أو تمسك ببعض الأجزاء المتشبثة بالجدار: ساقان من الركبة إلى ما تحتها. جزء من ذراع.

صدع عريض في الحائط يبدو حاداً داكن اللون ويمتد مثل صورة ظلية من القمة إلى القاع، وأعلى السرداب تبدو السماء قطعة كثيفة من اللون الرمادي. رأى صدعاً آخر يمتد بعمق نحو الجرح الكبير في جانب الكنيسة يملؤه ضوء ساطع، كان المذبح مدفوناً في الحطام، ومقاعد الكورال يعلوها التراب والحصى، ظهورها البنية محنية وكأنها في صلاة!

تماثيل القديسين على الأعمدة كانت أيضاً مليئة بالصدوع: جذوع مكشوطة وأحجار مسلوخة، بشعة في تشوهاتها وكأنها كانت حية ذات يوم. صدمته تلك الوحشية الغرائبية، وجوه عابسة، مثل وجوه العجزة والمعوقين، آذان وذقون مكسورة أو غير موجودة، تماثيل بلا رؤوس، رقاب حجرية تبرز من بين الأجساد على نحو مرعب، وأخرى مبتورة الأيدي وكأنها تنزف، تتوسل في صمت. تمثال باروكي من الجص تشقق بطريقة غريبة، مثل قشرة البيضة: وجه القديس الشاحب كان سليماً،

الوجه الضيق ليسوعي حزين. ولكن البطن والصدر مشقوقان، قشور الجص متناثرة على الأرض ومن تجويف البطن المظلم يبرز القش اليابس.

تسلق عبر مذبح العشاء الرباني إلى الجزء نصف الدائري جهة اليسار. كانت اللوحات الجصية على الجدار سليمة وواضحة في ضوء النهار. وكان يجد فيها بعض السلوى. المذبح الجانبي لم يصب بأذى ويبدو وكأنه قد تم تنظيفه حديثاً. كانت طاولة المذبح خالية وأمام الهيكل الحجري باقة من الزهور، وعندما نظر حوله محدقاً في المشى بين المقاعد رأى بعض من كانوا يعترفون للقسيس، وصناديق مغطاة بالتراب وقطع من الملاط الجاف. وبعيداً.. عند نهاية صف الأعمدة رأى نوراً لم يكن قد لاحظه حتى ذلك الحين فسار في اتجاهه. شمعة مضاءة أمام صورة للعذراء، وإلى جوارها التمثال الخشبي الكبير للمسيح مصلوباً والذي كان معلقاً قبل ذلك في السرداب بجوار الشمعدان.

نظف أحد المقاعد من التراب وجلس، في آخر مرة دخل فيها الكنيسة كانت الحرب ما تزال دائرة، شهر واحد مر، ورغم ذلك يبدو الأمر وكأنه حدث منذ زمن بعيد، ضوء الشمعة يتراقص أمام الهيكل الذي أكلت الرطوبة سطحه الخشبي. الطلاء أيضاً بدا متآكلاً في مناطق مختلفة وعلى وجه العذراء ندوب بيضاء، الأزهار فقط كانت طازجة وجميلة، قرنفل كبير الحجم، نضر.

حاول أن يصلي ولكنه جفل، سمع أصوات ترانيم تـأتي مـن تحـت الأرض، زالت رجفته عندما تذكر السرداب كـان مـا يـزال سـليماً وبـدأ يستمع للترانيم: أصوات رقيقة، جميلـة، ملائكيـة ولكـن عـددها يبـدو قليلاً.

وكان يعرف الكلمات واللحن.. وتذكر أننا كنا في شهر مايو، ما زلنا في مايو.. الشهر الذي انتهت فيه الحرب. من أصواتهم يمكنه أن يقول إنهم كانوا مستمتعين بالغناء: لحن ثان، وثالث، وحـزن لأنهـم توقفـوا فجأة.

جلس صامتاً يخيم الهدوء من حوله، يظلمه، ليتهم واصلوا ترتيلهم. كان خائفاً، شعر بأن الشقوق الواسـعة في الجـدران تمثـل خطـراً، فقـد تتسع، وقد يسقط القبو ويدفنه وسط تلك التماثيل الشائهة.

تدفق عرقه غزيراً، بدا القبو وكأنه يهتز بالفعل، وقف، رسم علامـة الصليب على صدره بسرعة وجرى نحو الباب.

سمع الناس يخرجون من الناحية الأخرى للهيكل، كانوا يضحكون ويتحدثون معاً.. ثم رآهم. مجموعة قليلة. هيئات رمادية تفرقت بسرعة تاركـة ـ فقـط ـ ذلـك الشـكل الأسـود. القسـيس، جلـس علـى القاعـدة الحجرية للسور منتظراً. كان يعرف أن بيت القسـيس خلفـه ورأى أنـه كان مسكوناً. ورغم أن جوعه كان قد زال ولم يتبق منه سـوى إحسـاس بـالوجع والـدوار، قـرر أن يسـأل القسـيس شـيئاً: خبـزاً أو بطاطـا أو

سيجارة، اقترب منه الشكل.. ولأنه كان يراه من أعلى بدا له طويلاً، الرداء الأسود الواسع يرفرف حول ساقيه، حذاء كبير. وأصابع قدميه مرتفعة إلى أعلى. شكلها كئيب وقبيح. جفل القسيس عندما رأى شبحاً ينهض أمامه فجأة، كان وجهه النحيل - المتورم - يتحرك بعصبية فقبض بشدة على كتاب الترانيم في يده.

قال «هانز»: عفواً. هل تعطيني شيئاً آكله؟!

تجولت نظرته على كتفي القسيس المائلتين وأذنيه الكبيرتين ثم على الساحة المربعة أمام الكنيسة: أشجار عتيقة يانعة جذوعها مدفونة في الأنقاض حتى المنتصف.

سمع القسيس يقول: طبعاً.

كان الصوت مبحوحاً وضعيفاً، وراح ينظر إليه. وجه فلاح نحيل وقوي، وأنف كبير وعينان جميلتان على نحو لافت. قال مرة أخرى: طبعاً، هل تنتظر هنا؟

– نعم!

جلس «هانز». كان مدهوشاً. طلب ذلك لأنه خطر له أن القسيس ربما حاول أن يساعده، كانت دهشته الحقيقية أن يجد أحداً يوافق على أن يعطيه شيئاً يأكله دون تردد، راقب الرجل وهو يعبر الشارع ويستدير ليلوح له ثانية. توقع الخبز أيقظ الجوع بداخله مرة أخرى، أطلق فيه ذلك الوحش الغامض الذي كان يجعل أشداقه تتقلص في

نوبات تشنجية، مثل السحابة الهوائية، التجشؤ الذي يترك طعماً رديئاً في الحلق ويملأه باليأس في نفس الوقت. سيظل الأكل احتياجاً عنيداً، يطاردني طوال حياتي. فكر في ذلك! لابد أن يجد شيئاً يأكله كل يوم وعلى مدى الثلاثين أو الأربعين سنة القادمة. مرة في اليوم على الأقل! كان ذلك عبئاً ثقيلاً، عليه أن يدبر آلاف الوجبات بأي طريقة. سلسلة يائسة من الاحتياج ملأته بالرعب. في ذلك اليوم كان قد تجول في المدينة تسع ساعات دون أن يجد شيئاً. حتى ذلك الذي وعد به، كان صراعاً مروعاً عليه أن يجدده آلاف المرات. وليس من أجل نفسه فقط. لأول مرة يفكر في «ريجينا» انتصبت صورتها أمامه واضحة، جميلة، وملحة! شعرها الأشقر، ووجهها الشاحب الذي تشوبه سخرية خفيفة عندما ظهر عند فتحة الباب المعتمة ليسأل هل تريد بعض الخبز، سيجارة؟

اشتاق إليها فجأة، وبشدة، وبوجع، وتخيل نفسه يقبلها. الابتسامة على وجه القسيس كأنها تأتي من عالم آخر، غير واقعية. غير حقيقية، مثل ذلك الغناء النقي الصافي الذي جاءه من باطن الأرض. شعر بأن أحداً يأخذه من كتفيه ويجذبه، غلبه الضعف فتعثر وهو يتبع ذلك الكيان المسرع، دار حول قوس الهيكل نصف دورة بدت طويلة طويلة ثم هبط السلم، شعر ببرودة الجدران السميكة وجفل عندما وضع القسيس أصابعه المغمورة بالماء المقدس على راحة يده.

– هل أنت كاثوليكي؟ سأله القسيس وهو يرسم علامة الصليب على صدره.

– نعم. لقد عمدت في هذه الكنيسة.

– مستحيل. (توقفا في المدخل).

– حقيقة!

– يا إلهي! إذن لابد أن تكون.

– نعم، قال متنهداً، كانت تلك هي الكنيسة التي أتبعها قبل ذهابي إلى الحرب.

تذكر بسرعة أيام الآحاد البعيدة التي كان يقضيها إلى جوار أمه في ذلك الفراغ شبه المظلم.

سأله القسيس: والآن؟

– الآن أعيش في ضاحية خارج المدينة.

– تعال هنا.

تبع القسيس في عتمة القبو حيث المقاعد مكدسة: كان ضوء النهار خفيفاً وشعلة النور الخالد أمام الهيكل. أومأ له القسيس ليتبعه إلى غرفة المخزن وهز رأسه قليلاً في اتجاه المذبح، كان متعباً لدرجة أنه لا يستطيع ثني ركبته، النور قوي في الداخل، هناك مصباح مضاء والابتسامة على وجه القسيس الريفي المرهق تبدو مثل انقباضة ألم.

مكسه ٢٨٨؟

قال القسيس: أنا سعيد لأنك هنا. وأشار إلى مقعد بني أمام خزانة قصيرة مفتوحة.. رأى أرواب أطفال الكورال وأردية من الحرير خاصة بالقسيس وكلها مغطاة بغبار خفيف. قال القسيس بلهفة والحماس يكسب وجهه بعض حيوية: نعم.. أنا سعيد فعلاً لأنك هنا.

ودفع باباً فانفتح، وأزاح بعض اللفائف التي كانت تحمل رسوماً: «لم يطلب مني أحد شيئاً اليوم، ولدي هنا لفافتان من قربان هذا الصباح، دعنا نرى.

أكمام ردائه الفضفاض ترفرف بالقرب من وجه «هانز» وضع بعض الرزم المغلفة بورق بني على الطاولة وقال:

«خذ ما بها.. وتذكر أنها ليست مني، ولذلك فلست أنا من يستحق الشكر عليها.

– من إذن؟

– «أشكر الله. مجهولون، أناس نستطيع أن نقول إنهم.. واحمر وجهه قليلاً. «الكنيسة الحية» ثم ضاقت عيناه من التأثر «خطاة ربما.. ربما أبرار. من يدري؟

– أناس فقراء ـ حتى الأغنياء.

أخذ «هانز» اللفائف من على الطاولة وحاول أن يفتح إحداها ولكن أصابعه كانت بلا قوة. شعر بأن ضعفاً مفاجئاً يشل حركته، قال: لا أستطيع. هل يمكن أن تفتحها؟

جذبت يد القسيس العريضة خيطاً، وفك عقدة فظهرت محتويات الرزمة: تفاحة صغيرة متغضنة تدحرجت على الطاولة. شريحة خبز سميكة. سميكة جداً مثل كتاب الترانيم الموجود بجوارها، سيجارة ملفوفة في ورق رقيق وجورب عسكري مغسول ومرتق.

قال القسيس: ما رأيك؟

حاول «هانز» أن يمسك قطعة الخبز بأصابعه فلم يستطع، كانت سميكة جداً، قشرتها بنية ومستديرة وتحيط بها مثل سور القلعة، ولم يكن ثمة فائدة من محاولة الإمساك بها. كانت يداه صغيرتين. أما السيجارة فكانت ملقاة هناك على سطح الطاولة الأملس، مثل أسطوانة من الكرتون بيضاء، هائلة الحجم سيجارة سقطت من أعلى بناية ما. كبيرة جداً!

يداه على الطاولة، صغيرتان، في غاية القذارة. بعيدتان عنه، وكان الصوت الذي سمعه بعيداً أيضاً.

قال الصوت: اشرب هذا!

وشعر بشيء يتدفق بداخله، شيء معتق وبارد ومع ذلك جعله يحس بالدفء. شراب رائع، طعمه مألوف إلى حد ما رغم أنه كان قد نسي اسمه. شعر بلسانه يتحسس شفتيه الرطبتين، شرب ثانية ومرة أخرى كان ينساب داخله معتقاً بارداً. وفجأة أدرك، كان نبيذاً، نبيذاً.

مكسه ٢٨٨؟

أخذت الأشياء الموضوعة على الطاولة أشكالها الحقيقية مرة أخرى، شريحة خبز سميكة مثل كتاب الترانيم، تفاحة، سيجارة، جورب، يداه الآن ممتلئتان بالقوة والحياة، وأصبح يرى وجه القسيس المرتبك قريباً منه: وجه شاحب وجيوب حمراء تحت العينين، رأى الكوب.. رفعه وشرب. ظن نبيذاً. فجأة يضع الكوب خائفاً، ثم يحدق في القسيس.

قال القسيس وهو يبتسم: لا تخف، لا تخف. إنه نبيذ ولا أكثر. هل تريد المزيد؟!

– إن كنت ترى ذلك.

– ولم لا. إنه نبيذ، نبيذ ليس إلا.

أخذ رشفة طويلة وهو يراقب القسيس عندما كان يفك رزمة أخرى: فرد منديلاً مربعاً فوقعت منه عملة ورقية. عيناه الآن صافيتان ليلمح عليها الرقم «50» وخطوط المنديل الصفراء.

– هل لديك ما يكفي من النبيذ؟ أقصد للقداس!

– نعم، لا تقلق، لدي ما يكفي لسنوات.

أعاد الأشياء إلى الطاولة «إن ما نحتاج إليه قطرات قليلة وقد استطعنا أن ننقذ المخزون كله، وهناك أيضاً نبيذ جديد. هل أنت متزوج؟

سأله وهو يبتسم فارداً المنديل تماماً ممسكاً به أمام وجهه. ظل «هانز» صامتاً للحظة ثم قال: نعم.

مرت لحظة صمت مربك والقسيس يطبق قطعة النسيج مرة أخـرى، وضع «هانز» الكوب على الطاولة، نظر إلى القسيس وفجأة انتابته رغبـة قوية، حارقة، أن يكون الآن مع «ريجينا». قال: لابد أن أنصرف عـن إذنك!

تناول هانز الرزمة من على الطاولة وقال: حسناً أننـا سـوف نلتقـي ثانية، أتمنى!

– أنا فعلاً أتمنى. وبودي أن ألتقي زوجتك، انتظر لحظة.

وذهب إلى ركن في غرفة المخزن، بحرص شديد تناول مفتاحاً من جيبـه وفتح خزانة كبيرة كانت مغطاة بالتراب. ثم عاد بزجاجـة لونهـا مائـل إلى الحمرة. مد يده بها نحو «هانز»: «لم أعطك شيئاً حتى الآن، تفضل».

– هل هي من عندك فعلاً؟

ضحك القسيس: ليس بالضبط، لقد استطعت أن أنقذها ـ يمكـن أن تقول ـ من قبو منزل وهو يحترق ـ أعطاها لي صاحبه فيما بعد، وأعتقد أنها أصبحت ملكي ويمكنني أن أتصرف فيها كما أشاء، إلى اللقاء.

توقف «هانز» عند الباب لحظة وهو ينظـر إلى القسـيس عنـدما كـان يغلق الخزانة «لا تنتظرني، أنا باق هنا».

انصرف «هانز»، انحنى قليلاً أمام المذبح، وعنـدما كـان يحـاول أن يسير بسرعة بعد أن خرج، كانت الزجاجة ترتطم بفخذه بشدة، كانت باردة وثقيلة!.

الفصل الرابع عشر

فجأة سمعها قادمة، كانت خطواتها متعبة، توانت لفترة في الصالة، يبدو أنها كانت تخلع معطفها وتعلقه على المشجب، اقترب وقع أقدامها من الباب وبدأ قلبه يخفق. كان يتمنى أن يرى وجهها، انتظر متوقعاً أن تدخل لتطمئن عليه، ولكن الخطى تراجعت وسمعها تتجه إلى المطبخ.

كان بوده أن يقوم لحظة وصولها، ولكنه لم يستطع، أصابه الفرح بالشلل وها هو يرقد ولا يسمع شيئاً سوى دقات قلبه.

بعد وقت قصير خرجت إلى الصالة، وسمعها تقطع الخشب بالفأس. كان يرى كل شيء بوضوح، الطريقة التي وضعت بها كتل الخشب على الأرض، وهي تضرب في الظلام، كانت لا ترى شيئاً ومع ذلك لا تخطئ الخشب. بل تشطر منه رقائق صغيرة. لا تتحسس شيئاً لكن لا

تهوي بالفأس على أصابعها. كانت الفأس كليلة إلا أنها يمكن أن تبتر الأصابع أو تصيبها بأذى على الأقل، سمعها وقد بدأت تسب بهدوء، أخطأت الخشب عدة مرات فصارت الفأس تهوي على الأرض بشدة فتهزها وتهز الجدران.. في النهاية وعندما حصلت على ما يكفي للتدفئة تقريباً، ألقت بها في الركن وعادت إلى المطبخ، ساد الصمت المكان، وخيم الظلام وبدت الغرفة تلفها زرقة داكنة كالدخان الكثيف، لم يعد يرى شيئاً سوى المنطقة حول سريره، كل شيء قذر، والجدران متشققة، والآن يلاحظ لأول مرة فتحة كبيرة في السقف، نهض، سار نحو الباب بهدوء وفتحه بحذر. كان ضوء ينبعث من المطبخ، والمعطف القديم الذي فردته على زجاج النافذة يسمح بمرور أشعة ضوء صفراء من خلال ما به من ثقوب فتسقط على الأنقاض في الصالة. كان نصل الفأس يلمع في مكان ما ورأى كتل الخشب الداكنة وأسطحها المشقوقة تلمع في الضوء الشاحب.

اقترب. الآن يستطيع أن يراها، أدرك أنه لم يرها هكذا من قبل، كانت مستلقية على الأريكة ورجلاها مرفوعتان، ملتفة ببطانية حمراء، تقرأ، بجوارها مصباح والموقد مشتعل. على الطاولة بجوارها علبة سجائر وبرطمان مربى ورغيف خبز مشطور وإلى جواره السكين بمقبضه الأسود الفالت.

***

عرف فجأة أنه سوف يراها طوال حياته، شعر بدوار خفيف، يستطيع بكل سهولة أن يتخيلها امرأة عجوز، مازالت نحيلة، شعرها أبيض، نفس الوجه المستدير الساخر على نحو ما. هزه ذلك الإدراك بعمق وألم وشعر بشيء شديد القسوة وكأن شخصاً ما يصب ماء بارداً على جزء خفي من نفسه، كأن طبيب الأسنان يشطف سناً انتهى للتو من ثقبه: سعادة وصدمة. شعر بأنه كان يراها هكذا منذ عدة سنوات وأنه سوف يراها لمدة عشرين سنة من الآن ـ مرة بعد أخرى ـ نهض من السرير وفعل شيئاً نهائياً لا يمكن الرجوع عنه.. شيئاً كان لا يمكن أن يقدم عليه. لقد قبل الحياة! كانت مركزة من أجله هناك، فترة وجيزة مليئة بالأمل والسعادة.

كانت تدخن سيجارة من مبسم وضعته بين شفتيها، ومن وقت لآخر، تتقلب وتحرك رأسها في حركة تشبه حركة الصقر لكي تلقي برماد السيجارة. رأى جانب وجهها الصافي الناعم، وفجأة كان يريد أن يقبلها مرة أخرى ولكنه لم يتحرك. كان يعرف جيداً أن دخوله المطبخ يعني أنه قد يضطر للحياة. أن يتحمل عبء الحياة الذي لا نهاية له والذي لا يمكن أن يفي به لقاء قليل من القبلات، أن عليه أن يخرج بمتطلبات الحياة اليومية إلى مسرح السوق السوداء. العمل أو السرقة، بينما كان قد فكر أن ينام تحت خشبة المسرح، في الظل، تحت أقدام الممثلين.

كان يعرف أن ما يزال هناك متسع من لديه فرصة الوقت لكي يختفي، لأن يتسلل بهدوء وينزل من على السلم ويختفي في الظلام، ربما لن تحزن لذلك كثيراً، وبالتأكيد لن تتوقع عودته.

ابتسم دون أن يدرك، كأنه يراها لأول مرة، كان ما يزال يرتدي معطفها. يرتديه لأن ليس لديه غيره، وكان يحمل رائحتها. ساد الصمت وهي تقلب الصفحات ببطء، ثم وضعت مبسم السجائر إلى جوارها. يرى الآن أنها كانت تمسك بفنجان على بطنها، كانت النار في الموقد قد اتسعت وعلا هسيسها وكان يسمع الرياح في الخارج تعوي بين الأنقاض وهي تكنس في طريقها طبعات الطلاء والملاط من السقف المكسور والأماكن المدمرة من المبنى فتسقط بين الحطام.

وضعت الفنجان على الكرسي وواصلت القراءة. تقرأ ببطء شديد. نفد صبره وهو يراقبها وتذكر أنه كان بائع كتب ذات يوم وأنه كانت لديه زوجة أخرى، زميلته في العمل. ذهب معها إلى السينما مرات قليلة أو كان يصحبها إلى المنزل عندما كانا يدرسان معاً، كان ذلك كله بعيداً جداً. في حياة أخرى. لم يستطع أن يتخيل أنه تناول شيئاً، أي شيء بجدية: دورة تدريبية أو مهنة.

تذكر خجله وتهيبه عندما كان يعود معها إلى البيت، تلك المرأة التي أصبحت زوجته فيما بعد، في الأمسيات الخريفية.

في المدينة المضاءة كان يتوق دائماً لأن يداعبها برقة ولكنه لم يجرؤ أبداً أن يمد لها ذراعه، وأحياناً كانا يسيران في شوارع مظلمة، وفي محطة مضاءة استقلا الترام، كانا يتحدثان طوال الوقت عن كتب وأفلام ومحاضرات استمعا إليها، لم تكن جميلة ولا أنيقة، كانت دقيقة الحجم وعادية جداً. أضواء مصابيح الشوارع الخفيفة تسقط صفراء بين جذوع الأشجار، متفرقة، منسابة، كأنها سائلة، وبين الأضواء والأشجار، تلك الأشجار الرمادية كان الضباب يمتد وينتشر ببطء كدخان كثيف خانق، دخان من دون نار.

سارا إلى البيت على شاطئ النهر. ببطء شديد ملاصقين للحاجز الجرانيتي الذي يحد الجسر، متقاربين. يلفهما الضباب، كان الماء ينساب في هدوء، وكان دائماً يلقي بعقب سيجارته في ذلك الضباب فيحدث صوتاً في الفضاء وهو ينطفئ.

لم تتحرك بعد، مرة واحدة جذبت البطانية إلى أعلى قليلاً وأحكمتها حولها، فاعتبر تلك الحركة الطفولية، العجولة، شيئاً جديداً.

دخل فجأة دون أن يطرق الباب، ذهب إليها مباشرة وقَبّلها في فمها، شعر بشفتيها الناعمتين الطريتين ورأى عينيها مفتوحتين. عينان رماديتان، رماديتان بعمق. تومضان، مسحوبتان إلى حد ما، وكان هناك ما يشبه حركة الدمى عندما ارتفع الجفنان البنفسجيان، أبقى عينيه

عليها وهو يقبلها بعنف. كان يمسك برأسها من الخلف ويحس بملمس شعرها الناعم بين أصابعه، حدق فيها لفترة طويلة ولم تخفض بصرها، بعد ذلك فقط، عندما تركت الكتاب يسقط وانحنى عليها أكثر. حينذاك فقط أغمضت عينيها.

عندما رأى على وجهها علامات نشوة رقيقة. جفل!

حررها من يديه وشعر بحمرة الخجل. قالت «اجلس» اعتدلت، وأبعدت البطانية عن ساقيها وجلست. لم يفهم لماذا كان سعيداً برؤيتها، أخذ فنجانها من على الكرسي ووضعه خلفه على الطاولة وجلس.

قالت: أراك تبتسم، تضحك، ماذا؟

لم يقل شيئاً، شعر بدفء لذيذ ينبعث من الموقد خلفه.

قالت ثانية: يا إلهي!

وقفت، شرعت في تناول برطمان المربى والخبز والسكين، ثم تركتها في مكانها. لأول مرة يرى يديها عن قرب. مثل أيدي الأطفال صغيرة لدرجة صادمة، ترتعشان.

– لابد أنك جائع.

قال: نعم!

قام ونظر إليها، عيناها دامعتان. أخذ سيجارة من العلبة التي تركتها على الطاولة، نزع شريط الورق من على برطمان المربى وفتله بين أصابعه لكي يشعل النار. نظرت إليه.

– كم غبت! بدا ذلك زمناً طويلاً. أطول من كل زمن الحرب.

أطفأ اللفافة ووضع ما تبقى من الورقة المحترقة على حافة الطاولة ووقف جوارها بجانب الموقد.

قالت: سأصنع القهوة!

هز رأسه فقط، بدت خجلة قليلاً، وشعر فجأة بأنهما كانا غريبين، خفضت عينيها، جذبت سوستة كنزتها بحدة وملست تنورتها المكرمشة وربتت على شعرها. كان الماء يغلي. وضعت ملء ملعقة من المسحوق في الإبريق وراحت تصب الماء فيه من كوب مكسورة المقبض.

عندما أحست خياشيمه بأريج القهوة شعر بأنه كان يتضور جوعاً، جلس، أطفأ السيجارة ووضع المبسم في جيبه.

صبت بقية الماء، وضعت غطاء برطمان المربى على الإبريق وجلست إلى جواره، بدأت تضع المربى على الخبز بهدوء وعناية ولكنه لاحظ أن يديها ترتعشان، وضعت الخبز على رقاقة صغيرة صفراء مصنوعة من الفلين، حدقت في إبريق القهوة ثم صبت له.

قال في وداعة: اشربي معي.

– ماذا؟

– شاركيني.

ابتسمت عندما ناولها فنجاناً وصب لها.

عند أول رشفة شعر بهجمة قوية من الدوار: كأن قطعة الخبز بالمربى قد هوت في مكان سحيق من جسده فأفقدته التوازن، الدوار شديد، كل شيء من حوله يدور حتى وإن أغمض عينيه. حركة اهتزاز عنيفة ولكنها لطيفة إلى حد ما.. كأنه يترنح جيئة وذهاباً في فضاء كئيب مظلم مثل لسان الجرس.

فتح عينيه ثانية رشف رشفة، وقضم قضمة أخرى من الخبز، كان كلما شرب أو أكل يزداد ترنحه وشعوره بالدوار.

تناول قطعة أخرى من الخبز بالمربى وشعر بتحسن، كانت القهوة رائعة، أخرج المبسم من جيبه العلوي وقال:

– هل تشعلينها لي من فضلك.

أخذت لفافة الورق من على حافة الطاولة وسألته «ماذا قررت؟»، «ماذا تريد أن تفعل؟».

– لم أفكر بعد، ولكن لابد أن أفعل شيئاً أنا سعيد.

– حقاً؟

– «حقاً، أنا سعيد أن أفعل شيئاً، سوف نتحدث في ذلك هنا».

أخرج المنديل من جيبه وفرده أمامه «أريد أن أعطيك هذا».

– «كم هو جميل! » تناولته، فردت أصابعها وتركته ينام بينها مثل الخمار، «جميل جداً، كم أنا سعيدة! ».

قال: معي نبيذ أيضاً، زجاجة كاملة، وبعض الخبز، وتفاحة.

– تفاحة؟! شيء نادر حقيقة، حتى في السوق السوداء لا توجد تفاحة واحدة الآن!

أطفأ سيجارته ووقف ثم قال بهدوء: تعالي معي هل تجيئين معي؟

قالت: نعم.

وقف بجوار الطاولة منتظراً، راقبها وهي تأخذ الشمعدان من الخزانة، تضع السجائر في جيبها، تأخذ الكبريت. كان وجهها جاداً وكانت تبكي، لاحظ ذلك كله فذهب إليها:

– إذا كنت لا تريدين، إذا كنت لا تريدين أن تجيئي معي، فلن أغضب، أنا أحبك، أحبك جداً!

قالت: لا، ورأى شفتيها ترتعدان «أنا فعلاً أريد أن أذهب معك. ولكني حزينة!!

– لماذا؟

– لا أعرف.

فتح الباب، أطفأ نور الصالة، دفعها أمامه برفق وهو يمسك بكتفها، وفي الصالة المظلمة كان يمسك بها بشدة، إلى أن فتح باب غرفته وأضاء النور.

- ادخلي.

ترك كتفها، وأومأ برأسه، اقتربت ببطه، أغلق الباب وراءها. جلست على السرير، وجذب الطاولة نحوه لكي تريح ذراعيها عليها.

سأل: هل لديك أكواب؟

- نعم، هناك في الخزانة. وأشارت إلى ركن كان ما يزال مظلماً رغم الإضاءة «تجدها في صندوق، وعندك كذلك مفتاح السدادة الفلين. بحث في الظلام، في الخزانة التي تتصاعد منها رائحة التراب، حتى وجد الصندوق.

قالت احضرها إلى هنا!

تناولت الأكواب منه، نظفتها بالمنديل فرآها تلمع في ضوء المصباح بينما كان يفتح الزجاجة. ملأ الكوبين وجلس بجوارها. قال بهدوء وهو يرفع كأسه: حسناً! أنت الآن زوجتي هل هذا ما تريدين؟

قالت بشغف: نعم هذا ما أريد أن أكونه.

- لن أتركك طالما أنا على قيد الحياة!

- سأظل معك، أنا سعيد.

وابتسم كل منهما للآخر في الظلام. قالت: نبيذ جيد، صاف وطعمه لذيذ.

- نبيذ العشاء الرباني، سر التناول، هبة!

- سر التناول؟!

لاحظ أنها قد فوجئت، دفعت النبيذ بعيداً ونظرت إليه. «لا تخافي». واضعاً يده على ذراعها للحظة «هذا مجرد نبيذ هل تؤمنين به؟».

– نعم، وأنت هل تؤمن؟

– نعم! أنا أيضاً كنت خائفاً في البداية ولكن لم أعد خائفاً.

قالت بهدوء: كنت أحياناً أتمنى ألا أكون مؤمنة ولكني لا أستطيع. أتمنى لو أنني أستطيع أشر ب النبيذ عندما يكون مجرد نبيذ، هذا يجعلني حزينة جداً.

– وأنا أيضاً، حزين، وسنحزن كثيراً.

جذبت الكأس إليها وشربت معه وقالت «أنا خائفة حقاً».

***

رقدا مستيقظين لفترة طويلة، يدخنان، بينما الريح تعوي في المبنى وتطيح بطبقات من الطلاء والملاط اليابس من الأدوار العليا فتسقط على الأرض وتتشظى، كان يرى منها مجرد وميض دافئ يميل إلى الحمرة عندما تتوهج السجائر فجأة، ترسم صدرها تحت البلوزة ووجهها الهادئ، وعند رؤية أخدود الشفتين ووادي وجهها الأسمر كان يملؤه حنان لا حدود له، أحكما الغطاء حولهما التماساً للدفء واستكانا معاً.. كان جميلاً أن يشعرا بالدفء، وبأنه سوف يستمر طوال الليل.

ارتطمت مصاريع النوافذ، صفرت الريح من خلال الشقوق في الألواح الخشبية، ثم راحت تعوي بين العوارض المكسورة. وفي مكان ما ارتطم جسم ما بحائط. جسم معدني، وهمست وهي إلى جواره «إنه الميزاب، مكسور منذ زمن بعيد»: صمتت، وأمسكت بيده «لم تكن الحرب قد بدأت بعد وكنت أعيش هناك آنذاك، عدت إلى المنزل فرأيت جزءاً من الميزاب معلقاً وكنت دائماً أتصور أنهم سيقومون بإصلاحه ولكنهم لم يفعلوا إلى أن قامت الحرب. وظل معلقاً من زاوية وتخلخل أحد المسامير التي تثبته، كان يبدو على وشك السقوط في أي لحظة وكنت أسمعه كلما هبت الريح.. كل ليلة وأنا راقدة هنا.. وفي كل مرة بعد المطر كنت أرى أثار المياه واضحة على جانب المبنى وقد أخذت شكل مسار أبيض كالح بجوار النافذة له حواف سوداء، بقع كبيرة بيضاء مستديرة ووسطها دوائر قاتمة، بعد ذلك كنت في مكان بعيد عن هنا، كنت أعمل في «تورنجن» وفي «برلين» عدت والحرب على وشك الانتهاء.. وكان الميزاب ما يزال معلقاً هناك بينما انهار نصف المبنى! كنت بعيدة، بعيدة جداً، عرفت كثيراً من الألم، ورأيت الموت والدم، عرفت الخوف، وطوال ذلك الوقت، كان الميزاب معلقاً يوجه ماء المطر إلى الفراغ. لأن الجدار لم يعد موجوداً. أجر السقف طاح، الأشجار اجتثت، الجص تفتت، ولكن قطعة الصفيح تلك بقيت معلقة من المسمار الوحيد لمدة ست سنوات.

هدأ صوتها. كانت تغرد. ضغطت على يده وكان يشعر بها سعيدة.

«هطلت أمطار كثيرة على مدى تلك السنوات الست، ومات كثيرون، دمرت كنائس، ولكن الميزاب بقي معلقاً هناك وكنت أسمعه يقعقع في الليل كلما عصفت الريح، هل تصدق أنني كنت سعيدة؟

– نعم!

خمدت الريح فجأة، وسكن كل شيء واقتربت قشعريرة برد. جذبا الغطاء إلى أعلى وأدخلا أيديهما تحته. لا شيء الآن يمكن أن يرى في الظلام، لا يستطيع حتى أن يلمحها رغم أنها راقدة لصقه ويشعر بحركة تنفسها. كان زفيرها الدافئ يصل إليه هادئاً. منتظماً. ظن أنها قد راحت في النوم عندما توقف إحساسه بنَفَسِها فجأة.

وتلمست يده طريقها ضعيفة إلى يدها، شعر بها تحرك يدها من حول رأسها أو صدرها وتمسك يده بشدة. والسعادة لم يشعر بها أبداً قبل ذلك، شعر بدفئها وأدرك أنه لن يشعر بالبرد أبداً بجانبها.

اقترب منها أكثر، ضغط نفسه بجسمها، التصق لدرجة أن كان عليها أن ترفع يديها. لم يكن ثمة مكان لهما بين جسديهما. لم يعد يحس بتنفسها، تصور أنها ربما تكون قد أدارت أنفها إلى أعلى وراحت تحدق في السقف. في الظلام. ولأول مرة يسأل نفسه: ترى بم تفكر؟

تمنى لو كانت سعيدة. كان يحبها، وكان يعرف أنها تحبه ومع ذلك لا يعرف شيئاً عما يدور بخاطرها. ولا حتى جزءاً من الأفكار

العديدة التي تجمعت بذهنها على مدى ساعات الأيام والليالي الطويلة، شعر بالوحدة، ولكن لديه انطباعاً بأنها ليست كذلك.

فجأة، أدرك أنها كانت تبكي. ولا صوت. يعرف ذلك فقط من حركة السرير، ربما كانت تمسح دموعها بيدها اليسرى الطليقة ولكن ذلك أيضاً لم يكن واضحاً، لكنه يعرف أنها كانت تبكي. جلس، وشعر في الحال بالتيار البارد المندفع من أسفل الباب في اتجاه السرير، انحنى عليها أكثر من ذي قبل. شعر بنفسها ثانية ينتشر على وجهه وينساب جدولاً ناعم الملمس. ليصل إلى خلف أذنيه، وعندما كانت أنفه تمس رقبتها الباردة برفق لم يكن يرى أي شيء، الظلام مخيم حولهما. فجأة شعر بقطرة من دموعها على شفتيه. كان يسمع دائماً أن الدموع مالحة، مالحة كالعرق، وأحياناً كان العرق يتدفق منه وينساب على وجهه، إلى فمه، ها هو الآن يدرك أن الدموع مالحة، ودافئة مثل العرق.

قالت له: ارقد، سوف تصاب بالبرد. هنا تيار هواء ظل فوقهما. كان يريد أن يراها ولكنه لم ير أي شيء حتى فتحت عينيها. حينذاك رأى ضوءهما الناعم ووميض الدموع فيهما.

تمدد ببطء ثم جلس مرة أخرى وهو يبحث عن يدها التي انزلقت من يده، كانت راقدة دون صوت ولذلك عرف أنها كانت ما تزال تبكي، ومن وقت لآخر كانت يدها اليسرى تمتد إلى وجهها بهدوء، استدار نحوها ونفخ في وجهها وتخيلها تبتسم. نفخ مرة أخرى.

قالت: هذا جميل. جميل. ودافئ!

نفخت هي أيضاً في وجهه، كان نفسها دافئاً. وشعرا بالسعادة، ظلا هكذا لفترة طويلة، ثم قبلها في الظلام، ولكنه شعر بمقاومة خفيفة، أحس بها. فعاد إلى وضعه السابق. قال: أعتقد أنني أحبك فعلاً.

قالت: نعم، وأنا أحبك.

فجأة غلبه التثاؤب، نهض بداخله مثل نوبة تشنج لا إرادية وإرهاق لا حدود له. ضحكت ولفت ذراعيها حول رقبته وشعر بها أيضاً تتثاءب. مسح خدها بقبلة، كأنه يقبلها للمرة الأولى. بدت مثل امرأة لا يعرفها، امرأة مجهولة. وضع ذراعه حول كتفها، جذبها إليه وراح في النوم. وجهه مضغوط في وجهها. وفي النوم كانا يتبادلان الأنفاس الدافئة كالقبلات!.

الفصل الخامس عشر

عندما حركت الخزانة تساقط الجص من على الجدار، قطعة كبيرة، ظهرت مكانها شقوق واسعة يملؤها الضوء، وهو بقوة حول أجناب الخزانة لتتحطم وتنتشر على الأرض، رماداً طباشيري اللون ملأ الجو وغطى كل شيء في الغرفة. كان رماداً دقيقاً يثير الاشمئزاز وكانت تسمعه وهو ينسحق تحت قدميها، وأينما كانت تخطو، تترك آثاراً بيضاء تستقر في النهاية في الحفر العريضة في أرضية الغرفة.

شعرت بالدموع تتجمع في عينيها، غصة يأس مؤلم مجهول تملأ حلقها، ألم مجتمع يريد الخروج ولكنها ازدردته بشدة وعادت لتعمل وهي مقطبة الجبين. فتحت النافذة، كنست الجص الناعم، فدفعت أمامها سحابة بيضاء. وبدأت مرة أخرى تمسح كل شيء بمزقة قديمة. كانت تلعن في سرها تلك النزوة المفاجئة التي دفعتها لتنظيف الغرفة.

مكسه ٢٨٨

من أين جاءت؟ لا تعرف. تلك الرغبة في التنظيف والترتيب كانت جديدة تماماً وكانت تعرف أن لا معنى لها.

قبل ذلك كان كل شيء يبدو أكثر نظافة: البقع والدوائر القبيحة أصبحت الآن واضحة في الأماكن التي نظفتها من الأرضية، الطباشير الأبيض المسحوق لم يكن يلاحظ قبل ذلك. كل جهودها لم تحقق شيئاً سوى إظهار طبقة من البقع يبدو التخلص منها مستحيلاً. بدا الأثاث بالياً أكثر من ذي قبل حتى بعد أن نظفته مرة أخرى. كل شيء رث وقبيح ولا يستحق ذلك الجهد: السرير المحطم، الطاولة ورقعتها المفككة، والتي يجب أن تحركها بحذر شديد وإلا انخلعت من الأرجل. الخزانتان، وصناديق بنية اللون مبقعة بالأبيض الكالح الممزوج بالتراب بفعل المطر، سطحها يعلوه تراب وحصى متفتت كان يتساقط بلا انقطاع من السقف.

ثم ظهرت بقعة أخرى كبيرة، بقعة من القبح والقذارة ملأتها باليأس بعد أن فشلت كل محاولات التخلص منها. ورق الحائط ممزق والجص مملوء بالشقوق ولا يمنعه من السقوط سوى الغراء الذي كان من المفترض أنه يثبت الورق. أزاحت الخزانة ثانية فسمعت صوت سقوط قطع الجص التي كانت متجمعة خلفها. راحت تنقل الماء بالدلو أكثر من مرة إلى الغرفة، ورغم أنها كانت تريد أن تنظف مساحة صغيرة إلا أن الماء الصافي كان سرعان ما يتحول إلى لون اللبن ويصبح سميك القوام بسبب الطباشير والحصى والرمل، وكان يترك رواسب صلبة عنيدة يصعب

إزالتها من على الأرضية. وفي كل مرة تحضر فيها ماء إلى الغرفة تقف مصدومة، الأماكن التي انتهت من مسحها تجف بسرعة ويظهر عليها اللون الأبيض. وخشونة قبيحة، بينما الأرضية التي لم تنظفها بعد كانت قاتمة وكلها بلون واحد تقريباً. ومن أسفل الخزائن كانت قطرات الماء والرمل الدقيق تتساقط.. شيء ما أشبه بالعناد جعلها تواصل الكفاح، وتستمر في جلب الماء رغم أنها تعرف أن لا معنى لذلك: كانت البقع تعاود الظهور وقطع أخرى تتساقط. أدركت حجم وكمية الطباشير والجص والإسمنت والرمل عندما نظفت مساحة جديدة وحملت ملء دلو من الحصى الجاف كان قد تساقط خلف السرير من مساحة صغيرة من الجدار. وباللمس عرفت أن الجص كان هشاً ومنتفخاً، وكانت هناك ثغرة بينه وبين الملاط تسمح بإدخال يدها. وعندما ربتت عليها أصدرت صوتاً عميقاً غامضاً.

كان السطح غير مستو، كان قد غاص في بعض المواضع تحت ثقل الجص مخلفاً كثيراً من الثغرات والشقوق والخطوط الدقيقة التي لا بد من أن تتفجر وتنهار ذات يوم، كميات جديدة من التراب والطباشير. لكي تستيقظ على الأرضية بقع جديدة لا يمكن التخلص منها.

فيما بعد كانت مستلقية على السرير، تدخن، وجهها نحو الحائط لكي لا ترى كيف ضاعت ساعات العناد الطويلة عبثاً، ذلك العناء الذي قد يستمر ويستمر إلى مالا نهاية.

الساعة فوق التسريحة تشير إلى الخامسة. كانت قد اشتغلت سبع ساعات، نقلت عدداً كبيراً من دلاء الماء مدفوعة بتلك النزوة الجديدة، المخيفة، والأرضية تظهر عليها درجات اللون. من الأبيض اللامع إلى أغمق درجات الرمادي وبشكل منفر.. نصب تذكاري مبقع مشوه هو نتيجة جهدها.

ملابسها معلقة على جسدها، ملتصقة به مثل المطاط الدقيق وتجعلها لا تستطيع أن تتنفس. كانت تشم رائحة نفسها، رائحة العرق وماء التنظيف النفاذة، الرغبة الملحة في الصابون والملابس النظيفة جعلتها تبكي. أطفأت سيجارتها بعنف وتناولت بعض الخبز ببطء، كانت تقطع لقمة لقمة من الشريحة السميكة وتدفع بها إلى جوفها.

في الخارج مطر. والظلام يملأ الغرفة ويقلل من رؤية الآثار المحبطة لجهدها في التنظيف، بعد أن أكلت الخبز أشعلت السيجارة مرة أخرى واستلقت على السرير تدخن وهي تحلم مع همهمة المطر. لا تستطيع أن توقف دموعها من الانهمار على خديها. كانت تتدفق غزيرة وبلا توقف، ساخنة سرعان ما تبرد. استيقظت. جلست، وجدت أن الساعة كانت قد أصبحت السادسة. بدت لها البقع على الأرضية أكثر دكنة، ورغم أنها لم تكن نظيفة إلا أن اتساقاً ناعماً. بدا عليها كانت تتوق للنظافة، وكانت تلك هي الرغبة التي دفعتها لكي تبدأ في المقام الأول. ولكن ذلك يبدو بلا معنى. ظلت الرغبة تتفجر فيها دون توقف.

لم تنجح عملية التنظيف في القضاء على القذارة التي كانت تتضاعف وبدأت تعتبر ذلك تحدياً. تسللت الشمس من الخارج فزعت عندما رأت الخزانات ما تزال شبه ضبابية وكأنها مغطاة بطبقة من الشحم، وعندما كشفت الأرضية عن وجهها القبيح قامت مرهقة، وضعت الماء على الموقد، ألقت فيه ببعض الخشب وراحت أثناء تسخين الماء تحسب كنوزها الثمينة: نصف زجاجة نبيذ، نصف رغيف، قليل من المربى، قطعة من الزبد، كمية ضئيلة من القهوة سريعة التحضير كانت قد لفتها جيداً في ورقة، تبغ وورق لف سجائر، نقود لها في الدرج، كومة صغيرة من الأوراق النقدية القذرة: تقريباً الألف ومائتان وخمسون ماركاً التي أعطاها لها «هانز» هذه الثروة بدت لها مهمة وباعثة على الاطمئنان. قربت الصابون من وجهها لفترة طويلة، مررته جافاً على وجهها وخديها لكي تشعر بعطره قريباً منها، عطر تلك القطعة المتشققة التي تفوح منها رائحة اللوز.

سمعته يضع شيئاً ثقيلاً على الأرض في الخارج، يبدو أنه كيس فيه شيء صلب وثقيل. عندما دخل عرفت أنها كانت تمطر في الخارج، كان وجهه مبتلاً، وخطوط صغيرة من الماء مختلطة بتراب الفحم تجري على وجهه الشاحب المرهق، كأنه يبكي دموعاً سوداء. رأت ذلك كله من خلال الرغوة الخفيفة على حاجبيها ورموشها مما جعل عينيها

مكسه ٢٨٨؟

تطرفان. كانت مرتبكة بسبب صدرها العاري ويديها المبتلتين جذبت قميص النوم الذي كان قد انزلق.

قبلها في رقبتها وهو يبتسم، وللحظة، شاهدا نفسيهما في المرآة جنباً إلى جنب، رأسه الأسمر على كتفها، إلى جوار وجهها الشاحب.

***

أكلا في السرير، وإلى جوار إبريق القهوة على الكرسي كانت توجد بعض شرائح الخبز بالمربى. كان الهواء جميلاً ومعتدلاً والمطر في الخارج مستمراً، صوته الرتيب يشيع جواً من السحر. ظهرت الدوائر الداكنة في السقف مرة أخرى كما يحدث كلما أمطرت. كانت تتسع. تمتص الماء وتتسع. إلى أن امتصت تماماً كل البرك الصغيرة من الماء المتجمع في أرضية الدور العلوي. كانت الطريقة السريعة الصامتة التي ظهر بها الماء، كما لو كان فوق سطح قطعة من ورق النشاف مخيفة ومثيرة للقلق.

دوائر تشبه عيوناً تحدق فيهما، داكنة من المنتصف. سوداء تقريباً. ونقطة ماء تتدلى. ثم تسقط في النهاية وتمد ظلالها رمادية نحو الحواف. كأنها علامات. إشارات إنذار تومض. وظلت هكذا عدة أيام ثم اختفت تاركة حوافها القاتمة. بعد ذلك سوف تتخلخل مساحة من السقف ويسقط الجص على الأرض، كاشفاً في الشرائح الخشبية عن ثغرة.

فجوة. يملؤها العنكبوت تدريجياً. ومن مكان سقوط الجص يتدفق الماء إلى الأسفل!

زحزحا السرير من مكانه، الآن هو في وسط الغرفة وضاعف ذلك من الشعور بالقلق. يرقدان جوار بعضهما دون أن يتلامسا، جعلتهما النظافة يشعران بالسعادة، فقط كان يلمس وجهها أو ذراعها من وقت لآخر وهو يناولها الخبز، تبتسم له.

قال: بالمناسبة، أوراق التسريح من الخدمة مرت من التدقيق.

– صحيح؟

– أعطوني شهادة تسجيل بدلاً منها، رغم ـ وضحك ـ رغم كوني أول من يسرح من الخدمة. لم يكونوا يتوقعون أحداً حتى منتصف يونيو. ربما كان من الأفضل أن نغير التاريخ الآن وننتظر حتى يونيو لكني حصلت على الكوبونات.

– حسناً! إلى متى هي صالحة؟

– حتى نهاية يونيو، من يدري كيف ستستمر الأمور حتى ذلك؟

– نعم! إنه شهر كامل تقريباً، والفحم؟

ضحك مرة أخرى «هذا أمره سهل، كل ما عليك هو أن تقفزي إلى القطارات وتلقي بقوالب الفحم، القطارات تقف أحياناً والحراسة عليها تكون معدومة. راقبت كل شيء بدقة طوال المساء، وقد أخبرني بعضهم بمواعيدها، بالضبط».

مكسه ٢٨٨؟

بحث في جيب المعطف المعلق على ظهر الكرسي وأخرج ورقة صغيرة: «الخامسة صباحاً، ثم في الحادية عشرة تقريباً، في الرابعة بعد الظهر، وفي حوالي السادسة، وهي عموماً تصل في مواعيدها، يلزمك عربة يد ولا يمكنك الذهاب في الخامسة بسبب حظر التجول. هل تريدين بعض القهوة؟

– نعم!

تناولت الفنجان من على الكرسي بجوار السرير ومدته نحوه، صب لها القهوة.

قال: نعم، من يدري ماذا سيحدث في نهاية يونيو. أو حتى منتصف يونيو؟ لدينا كوبونات وخبز وتبغ وسوف أجمع مائة قالب من الفحم في اليوم. لابد أن ذلك سيكون كافياً. سمعت أنه يمكن الحصول على رغيف من الخبز مقابل خمسين قالب من الفحم. وعلى سيجارة في مقابل عشرة.

– نعم، أعتقد أن ذلك صحيح، الرغيف يساوي ثلاثين ماركاً والسيجارة ستة كما أن الفحم في الصيف رخيص.

– سعره يرتفع عندما تنخفض درجة الحرارة ـ ولكن الخبز يرتفع أيضاً ـ الجوع أكثر قسوة من الشتاء.

– لا داعي للتفكير في الشتاء من الآن!

قال: بالله عليك. دعينا لا نفكر في الشتاء!

قالت بهدوء وبطء: أنا سعيدة.

– وأنا أيضاً. لا أعتقد أنني كنت سعيداً أبداً كما أنا الآن.

صمتنا فترة وكان صوت المطر ما يزال قوياً والماء يتساقط من الأشجار في الخارج، وكذلك من السقف، سألها: هل تريدين سيجارة؟

ولكنها لم ترد، وعندما التفت وجد أنها كانت نائمة ـ وكانت تبتسم في نومها. اقترب، حتى استقر نفسها الدافئ على صدره.

قال في نفسه: أنا أحبها. أعرفها. ولسوف أعرف عنها الكثير، ولكن لا يهم حجم ما أعرفه، لن يكون كثيراً أبداً، لا شيء تقريباً!.

الفصل السادس عشر

كان مرهقاً للغاية، فقد مر وقت طويل منذ أن استيقظ مبكراً، وكان يشعر برغبة شديدة في النوم. أو لعله كان نائماً بالفعل. الجو شديد البرودة. حتى وميض الشموع النحيلة يبدو متجمداً. شموع صفراء معوجة تقف ضعيفة أمام الظلام المائل للزرقة خلف المذبح. وهناك حائط مطلي بالكلس الأبيض. أو لعلها ستارة باهتة. ليس متأكداً.

الشمعدانات بالية وفقيرة مثل المكان الذي تحيط به. الناس جاثمون أو راكعون في صمت ولبعضهم رائحة منفردة، كما هي رائحة الجوعى الذين يعيشون في الأماكن العفنة. مثل رائحة الكرنب والدخان البارد المتصاعد من الموقد. كانت الرقاب التي يراها أمامه نحيلة ضامرة، والشعر معقوص تحت مناديل النساء. وفي هذا الصمت الآسن كان يسمع صوت القسيس وهو يتكلم بهدوء ورتابة وكأن لا قيمة للوقت:

«جسد حقيقي ليسوع المسيح ابن إلهنا، آمين».

لم يكن قد سمع قبل ذلك قسيساً يقرأ تلك الآية بكاملها أمام كل واحد من المصلين. كانوا معظم الوقت يهمهمون ويتمتمون وهم يتحركون. أما ذلك القسيس فكان يقف أمام كل مصل ويتلو العبارة كلها. يبدو أن العشاء الرباني لن ينتهي. لم تكن الأبواب خلفه محكمة فكان يشعر بتيار هواء شديد. الشقوق في الجدران والنوافذ اتسعت والرطوبة تكسو الألواح الخشبية فتجعلها منتفخة ومخلخلة ومن بين طبقاتها وأحشائها يبرز اللباب القذر: الغراء الذي كان يمسك بها في الأصل.

عند الواجهة حيث المذبح يوجد مدخل قوطي يؤدي إلى الصحن الرئيسي، لابد أنه كان مغطى بالتراب أو بستارة كبيرة فلم يستطع أن يتبين ما إذا كان جداراً أو واجهة من القماش، كل ما يستطيع رؤيته هو الأجناب المذهبة لعمود قوطي يمتد في قبو يضيق حتى نلتقي نهايته فوق المذبح.

كل شيء يسير بهدوء، القسيس يقدم الضيف لذلك العدد القليل الذي جاء إلى سر التناول وصوته يهمهم بوقار فوق الرؤوس المسكينة بينما هو ممسك بقطعة من خبز القربان: «جسد حقيقي ليسوع المسيح».

رفع مساعد القسيس ياقة ردائه الكهنوتي وراح يحك راحتيه تحت طيات أكمامه التماساً للدفء، وكان مسموعاً وهو ينشق بصوت عال وبانتظام. تلا القسيس السطور الأخيرة من الصلاة بيدين مرفوعتين وكان

ترديد مساعده يأتي كئيباً ودون اهتمام. كان يرفع رأسه قليلاً من وقت لآخر ويبدو أنه نظر نظرة جانبية طويلة إلى الشموع، وكأنه يعترض على ذلك الإسراف. وفي النهاية ركع في الأمام وعلى ذراعه كتاب القداس الخلاجي ورسم القسيس علامة الصليب فوقه. ببطء وورع. ورغم كل شيء كان «هانز» يشعر بشيء يشبه الفرح. الاستقرار النفسي. رأى الولد يطفئ الشموع بسرعة ثم يتبع القسيس إلى غرفة المخزن التي يحتفظون فيها بالأشياء المكرسة للخدمة في الخارج. كان الجو مشرقاً وكانت الساعة قد بلغت الثامنة تقريباً. عبر الشارع ودق الجرس مرة أخرى، خلف الفتحة الحديدية للباب، في الداخل سمع صوت الجرس غائراً وحاداً، فتحت مدبرة المنزل المصراع. امرأة ذات وجه عريض. أحمر. نظرت إليه متسائلة: هل انتهى القداس؟

وعندما رد عليها فتحت له دون كلمة أخرى، وقالت وهي متجهة إلى الصالة «ادخل». تبعها. ولكنه عندما ارتطم بجدار خشبي في الظلام في آخر الصالة كانت قد اختفت، فكر، ربما كان عليه أن ينتظر، كان صوت أطباق يأتي من ركن بعيد لم يكن يراه. وفجأة هلت تلك الرائحة المنفرة، الحلوة، المعلقة في جو الصالة والتي كانت قد شقت طريقها في السجادة البالية الرطبة: رائحة اللفت المطبوخ، البخار يتصاعد من الركن الموجود فيه المطبخ ويضربه بدفئه البغيض. يبدو أنها كانت تعد حساء اللفت كما كان يفعل الآخرون، فوق موقد محشو بخشب رطب لم

مكسه ٢٨٨؟

تشتعل فيه النار جيداً.. كان الدخان ورائحة الصدأ في استقباله كـذلك. وكان صوت مدبرة المنزل العميق مسموعاً وهي تترنم وترد على نفسها في الركن الذي يبدو أنـه لا يمكـن أن يتجـه إليـه. لم تكـن تعـرف سـوى جملتين لأنها راحت تكررهما، وأثناء الوقفات الطويلـة ـ عنـدما كانـت تفعـل شيئاً في الموقـد أو غـيره ـ كـان يشـعر بـإغراء شـديد لأن يـردد الصلوات التي حضرته الآن، من بعيد، ربما كان ذلك منذ عشر سنوات عندما كان مدرس الدين قد وضعها في رأسه تلك التراتيم الطويلـة الـتي كانت تشبه البراعم الجميلة وهي تتفتح له.

وفي النهاية دخل ضوء من الباب الخارجي إلى الصالة، فتعرف على الظل الطويل النحيل للقسيس وسط الأشعة البيضـاء، وفي نفس الوقـت رأى أنه كان يقف أمام حـاجز خشـبي يظهـر مـن خلفـه صـندوق مـن البطاطا وأشياء أخرى مكدسـة بطريقـة رديئـة. اقـترب منـه الشـخص. وعندما شعر بنفسه في الظلام ورأى الوجه الشاحب قال: «أنا شـنتزلر». قال القسيس بسرعة وبارتباك واضح: «شنتزلر». حسـن أنـك هنـا، أنـا سعيد بذلك!

وفتح القسيس باباً ظهر منه ضوء خافت وطلب منه أن يدخل. وجد نفسه في مواجهة فوضى: سرير، كراسٍ، خزانات كتب وطاولة ضـخمة مكدسة بالكتب والصحف وكيس مملوء بالجزر.

قال القسيس بتوتر: أعتذر عن هذه الفوضى، فالمكان ضيق كما ترى.

نظر حوله ببطء، كانت الغرفة فعلاً تبدو في حالة سيئة جداً، إلا أن السرير كان مرتباً. الشيء الوحيد المعقول في تلك الغرفة القذرة. الأرضية نظيفة بقدر ما كانت هناك أرضية: ربما ثلاثون قدماً مربعاً من الألواح الخشب، حفر وأخاديد واسعة تلمع القذارة سوداء بينها. مما يدل على أن الرطوبة كانت قد ضربتها بعنف. كتب كثيرة موضوعة مقلوبة في الخزائن. ذهب ليعدل من وضعها. في تلك اللحظة جاء القسيس مع مدبرة المنزل. كان يحمل صينية وإبريق قهوة وفنجانين وبعض شرائح الخبز على طبق، وسلطانية من حساء اللفت السايط وكانت مدبرة المنزل تحمل تحت أحد إبطيها بعض قطع الخشب وفي اليد الأخرى بعض القشارة.

سأله القسيس: «ستتناول معي فنجاناً من القهوة. أليس كذلك؟ الجو بارد، بارد رغم أننا في يونيو» وضحك.

كان في الحقيقة جائعاً، وفي هذه الغرفة عاوده الشعور بالبرد. قال: نعم، شكراً.

وضعت مدبرة المنزل نشارة الخشب في فم الموقد الأسود الموجود وراء السرير مباشرة، وألقت فوقها ببعض قطع الخشب وكرمشت ورقة جريدة.

قال القسيس: لا بأس «يا كاتي» سأقوم أنا بذلك.

خرجت. عندما أغلقت الباب كانا يسمعانها تغني في الخارج مرة أخرى. واضح أنها كانت سعيدة بذلك، ثم اختفت. أشعل القسيس عود

ثقاب في ورقة الجريدة المكرمشة فشقت النار طريقها فيها، نار زرقاء داكنة، كسولة، كان الدخان ينبعث من أسفل، وعبر الغطاء العلوي تصاعدت سحب رمادية دقيقة، قال القسيس: «آسف لأنني جعلتك تنتظر، لكن الكاهن مريض وكان عليَّ أن أقيم القداس الثاني أيضاً، لم أعرف ذلك إلا اليوم، أتمنى ألا أكون قد عطلتك عن شيء مهم».

يقف الآن أمام الموقد يفرك يديه وينظر إلى «هانز» بفضول. خفض بصره ثانية وتمتم: لن تصدق كيف يكون الجو بارداً في الكنيسة، أحس وكأنني لن أشعر بالدفء أبداً. كيف سيكون الوضع إذن عندما يأتي الشتاء؟!».

كان شاحباً، وفمه الأجش متهدل في وهن، وتحت العيون الجميلة الحزينة ـ الشيء الوحيد الجميل فيه ـ تنام ظلال داكنة تميل إلى الاحمرار، جفونه ملتهبة. كان صوت الخشب مسموعاً وهو يتشقق داخل الموقد. بحث القسيس تحت السرير، تناول قالبين من الفحم من الصندوق وألقى بهما فوق النار. وكان متضايقاً لأن «هانز» لا يقول شيئاً.

سأله بعصبية: هل أنت متأكد أنني لا أعطلك؟

هز «هانز» رأسه: لا، طلبت مني أن أحضر وأنا.

قال القسيس: «طبعاً، طلبت، طلبت من زوجتك أن تقول لك ـ لحظة من فضلك». وتقدم نحو الطاولة، ملأ الفنجانين وجلس «تفضل بعض الخبز والحساء».

– لقد تناولت إفطاري، القهوة تكفي، إنها ساخنة.

– تفضل. كل أي شيء.

– شكراً.

تناول القسيس شريحة من الخبز مستخدماً سبابته اليسرى والسكين مثل الملقط، وضع عليها بعض الحساء السايط بالملعقة وراح يأكل بشهية. وكان من وقت لآخر يلتفت وينظر إلى الموقد، ولاحظ بكل رضا، أن المعدن الرقيق كان قد بدأ يومض. كان يأكل ببطء مثل شخص يريد أن يؤخر تلك اللحظة الرهيبة قدر ما يستطيع. لحظة ألا يكون لديه ما يأكله، ومن يعرف أنه سوف يظل جائعاً هذا إلى جانب أن حساء اللفت كان يؤذي أسنانه، فكان من وقت لآخر يلوي قسمات وجهه.. وفي نفس الوقت يحاول أن يحتفظ بوجهه مفروداً فيسفر ذلك عن ابتسامة عريضة كلها ألم. بلل آخر شريحة من الخبز بالقهوة الساخنة، قال وهو يمسح فتات الخبز من على الطاولة بإبهامه العريض:

– ولكنك تدخن، بالتأكيد.

– نعم.

– ناولني هذا الكيس من فضلك.

كان الكيس هناك على رف الكتب بين حقيبة كبيرة وصندوق من الكرتون يبدو أن فيه بعض الملابس القذرة. وكان مملوءاً بالتبغ البني

مكسه ٢٨٨؟

الغامق. أحضره «هانز» له وأخرج علبته. كان فيها قليل من التبغ ودفتر صغير من ورق لف السجائر.

– تلف لنفسك؟

قال هانز: نعم.

مد القسيس الكيس إليه وبدأ يحشو غليونه، ثم اتكأ. تنحنح ليسلك حنجرته وقال: لا أعرف بالضبط كيف أبدأ، وسوف تعذرني، نحن عادة لا نطلب من المؤمنين الملتزمين أن يحضروا إلينا، وأعتقد أن ذلك مكروه ـ رؤساؤنا حساسون جداً بالنسبة لمسألة الهدايا ـ تنحنح بشدة مرة أخرى، ومسح من على شفتيه نقطاً من الزبد الخفيف، «ولكني رفعت الكلفة لأني أعرف زوجتك، وعلمت أثناء زيارتي أنك أنت الذي جئت مؤخراً إلى السرداب. كان علينا أن ننتقل من هناك كما ترى ـ الجملون الكبير أعلى الكنيسة انهار وظهرت الشقوق في سطح السرداب.

قال «هانز»: «رأيت ذلك».

– هذه الكنيسة قبيحة جداً.

هز كتفيه، واضح أنه كان يفضل أن يتحدث عن شيء آخر يدور بعقله. «إنه البقية الباقية من كنيسة، مستشفى صغير، ألا تعرف أنني أعرف زوجتك؟».

– لا.

– أنا دفنت ابنك.

– لم يكن ابني.

تعتم، وتنحنح وعبث بغليونـه المكتـوم: أنـا دفنتـه، زوجتـك سـيدة متدينة جداً.

أخذ الغليون من فمه ونظر إلى «هانز» في دهشة واضحة: ألم تعرف؟

– لا، لم أعرف أنها كانت متدينة، لقـد تكلمنـا ذات مـرة في أمـور دينية.. مرة واحدة. وباختصار.

– ألم تتزوجا عن طريق الكنيسة؟

– ولا عن الطريق المدني.

تعتم القسيس ووضع الغليون في فمه، لم يكن التبـغ يشـتغل جيـداً، فكان يجذب النفس عدة مرات لدرجـة أن نفسـه انقطـع للحظـة، ومـر وقت حتى عاد التبغ للتوهج وظهرت سحابة الدخان.

قال: لقد تكلمت مع زوجتك مرات قليلة، حتى قبل أن تحضر أنت إلى هنا. إنها فعلاً سيدة متدينة، وتقية. ألم تعرف ذلك حقاً؟

هز رأسه صامتاً، كان التبغ قوياً، زراعة منزلية. وقد جف بسـرعة. شعر بدوار خفيف وانتشر التعب في جسده مثل السم عندما ينتشر بـبطء فيسد كل مسام الوعي. رشف من القهـوة، رأى القسـيس يرفـع ذراعـه ليصب مرة أخرى. ودون وعي منه حدق عميقاً في كمـه الأسـود الواسـع المرفوع، رأى ذراعاً قوية غزيرة الشعر وكم القميص مشمراً فـوق الكـوع، ففكر: ولم لا يفرد الأكمام إذا كان يشعر بالبرد؟

أيقظه الشراب الساخن بعض الشيء فأدرك أن القسيس كان قد استأنف الكلام، ردد جملاً قليلة لم يسمعها، كان الآن يقول: القربان، أنا لا أفهم كيف يؤمن شخص ولا يتناول القربان، هل يمكن أن تفسر لي ذلك؟ ولكن من الواضح أنه لم يكن ينتظر إجابة. «من المؤكد أنك مؤمن ملتزم.. أليس كذلك؟».

حدجه القسيس بنظرة حادة وكرر السؤال بصوت عال وبحدة: «من المؤكد أنك مؤمن؟ واضح أنه يتوقع إجابة عن السؤال.

قال «هانز» دون تفكير: نعم!

في الواقع لم يكن قد خطر بباله قبل ذلك أنه لم يتوقف عن الإيمان في قرارة نفسه. كانت كل تلك الأشياء جلية بالنسبة له، حتى وإن كان تعبه ثقيلاً وكبيراً، كانت تبدو غير مهمة.

«حسناً» ابتسم القسيس «في النهاية هذا ليس أمراً بسيطاً» وابتسم ابتسامة عريضة، وانتشر إشعاع من البساطة على وجهه فوضع الغليون: وأنت لك شفيع له أثره، إنك لن تنجو بالرغم منك.

حدق «هانز» فيه مرتبكاً، هز رأسه وتلعثم:

– أمي طبعاً!

– لا. ليست أمك. ربما كان والدك، وآخرين لا تعلمهم، ولكن هناك واحد. وبلا جدال. أقول لك، يمكن أن تصلي من أجل الصغير.. واضح؟

وثابت لاموتياً دون أي شك أنهم مع الله، أرأيت؟ هز «هانز» رأسه. حدق فيه القسيس حائراً مضيقاً عينيه في ذعر وقال: الطفل، ألا ترى؟!

ياه! يتحدث عن الطفل، مرت أيام ولم يفكر في ذلك بالمرة، بينما كان الأمر يرافقه في أحيان على شكل ألم رهيب، وأسف لا يوصف. لا يعرف له أسماً. نظر إلى القسيس وقال:

– نعم، بالطبع، ولكنه لم يكن طفلي.

– حتى ولو لم يكن، أنت تعيش مع أم الطفل وبينكما علاقة أكثر من حميمة.

بدا واضحاً له أن الطفل كان في الجنة، لم يشك في أن رضيعاً عمره ستة أسابيع سيذهب إلى الجنة. مباشرة. لم يكن هناك حاجة للكلام عن ذلك ولكن الفكرة تبدو سخيفة. فكرة أن يكون ذلك الكائن الصغير هو شفيعه!

وضع المبسم بعناية في علبة التبغ وسأل: لذلك طلبت مني الحضور؟

هز القسيس رأسه: سامحني، أشعر على أية حال أنها مسؤولية! قام «هانز» وهو يتنهد ووقف بجوار الموقد وسأله بهدوء:

– هل أنت في حاجة للفحم؟

قال وهو يلتفت إليه ليرى بعضهما الآخر: نعم، إنه مكلف.

– سأحضر لك قليلاً منه.

– تقصد.

مكسه ٢٨٨

– لن تدفع شيئاً. إنه لا يكلفني أي شيء.

– تعرف وسيلة رسمية لذلك؟

ضحك «هانز» ضحك بصوت عال، وكأنه يضحك بحرية ومن كل قلبه لأول مرة منذ وقت طويل. ضحك كثيراً لدرجة أنه اختنق وراح يسعل. وبمجرد أن رأى الابتسامة البلهاء على وجه القسيس غلبه الضحك مجدداً.

– آسف! ولكن الوسيلة الرسمية وسيلة جيدة.

– لماذا كل هذا؟ وبدا على القسيس الضيق.

– هذا ممكن دائماً.

قال «هانز»: بالطبع! وشعر بحزن مفاجئ ينتابه. اشتاق لأن يكون إلى جوار «ريجينا»، نائماً بجانبها، ويسمع صوتها.

– نعم! لدي وسيلة رسمية لذلك. أسرقه، وهكذا أعيش!

قال القسيس بضحكة صغيرة: هكذا! أعتقد أن ذلك لابد أن يكون عبئاً ثقيلاً!.

الأمر ليس بهذا السوء، والمسألة سهلة، كل ما عليك هو ألا تسرف في الحماس، إن كان لديك ثلاثون قالباً في الكيس لن يعيرك أحد اهتماماً. ولكني أحصل على ثلاثين قالباً ثلاث مرات في اليوم حياة منظمة دقيقة.

لدي ملابس مثل ملابس عمال السكة الحديد وكيس وكشاف ـ وجدول المواعيد. وأؤدي عملي بانتظام مثل أي موظف، وواضح أن انضباطي يثير الاحترام لدى الشرطة. سوف أحضر لك بعض القوالب!

– وسأدفع ثمنها بكل سرور.

– لا. لا، سوف أقدر ذلك إن أنت...

وتوقف عن الكلام ونظر إلى القسيس بارتياب. لأول مرة يشعر بشيء يشبه التأثر. وليس موجهاً نحو ذلك الرجل شخصياً. نظر كلاهما إلى بعضهما البعض وشعر «هانز» بوجهه يتهدل، استهلك التعب جميع آثار التوتر في بشرته وأحس كأنه بداخل غلاف جلدي واسع ليس له. قال بهدوء: «أريد أن أعترف».

وقف القسيس بهمة ونشاط لدرجة أن «هانز» ارتعد، وصاح: «أسرع. هيا. اجلس هنا» ظهر على وجهه الفرح والخوف وشيء من عدم الثقة، تحرك بسرعة ولهفة وكأنه يهرع نحو موقد لكي ينقذ قدراً من الغليان، صاح: اجلس هنا بالضبط.

وجذب رداءه الكهنوتي من على المسمار، أزاح فناجين القهوة جانباً واتكأ على مرفقيه، كانت الطريقة التي أخفى بها وجهه بين راحتيه تبدو عملاً وظيفياً، شيئاً تدرب عليه، جاءت تلقائياً. همس «باسم الآب والابن والروح القدس» ردد «هانز» الكلمات وراءه وقال «آمين».

– لا أعرف متى اعترفت لآخر مرة.

– حاول أن تتذكر.

– ما هذه السنة؟

قال القسيس: 1945، دون أن يبدي أي دهشة.

– أنا متأكد أنني اعترفت سنة 1943، في الشتاء. قبل الحرب مباشرة.

– منذ عام أو عامين إذن؟!

– نعم. قالها متردداً.

ظلت نظرته المحدقة تبتعد عن يد القسيس القذرة من أثر الفحم وعيناه مثبتتان بشدة وبلا أمل على طبق الخبز الذي كان خالياً! وعلى الفناجين الفارغة إلا من الرواسب السوداء، ومفرش الطاولة الرمادي.

قال: في معظم الأوقات كنت ضجراً، لا صليت لآلهة أخرى ولا خنت زوجتي عندما كانت على قيد الحياة.

– كان لك زوجة؟

– نعم، ضجرة، ضجرة إلى أبعد مدى. لا قرابين. لا قداديس.. آخر قداس كان منذ عام، نعم منذ عام. لقد أذنبت بحق الوصية السادسة عدة مرات. أخطأت. سرقت. سرقت كثيراً أثناء الحرب - والآن القوالب. قوالب الفحم.. أعيش الآن مع «ريجينا» - ثم قال بحماس - ولكنها زوجتي.

مكسه ٢٨٨؟

ينظر الآن من خلال أصابعه المفرودة قليلاً لأنها كانت قد كلت من قبضه لها بشدة، ولاحظ أن القسيس كان يبتسم رغم أنه لم يعرف أنه كان يراقب.

– وصلواتك.

– لا أعرف.

– حاول أن تتذكر.

– لم أصل منذ وقت بعيد، كانت آخر مرة في عنبر المرضى، ولابد أن ذلك كان منذ عامين، وقوالب الفحم.

– هه، كم قالب؟ أكثر من حاجتك؟

– نعم. وأبادلها بالخبز والسجائر.

– وتعطي بعضها مجاناً؟

– نعم.

– جميل. ! لا ينبغي أن تكسب نقوداً من ورائها. الإنسان لابد أن يعيش، فاهم؟

– نعم! ـ وسكت ـ

ثم سأله القسيس بهدوء: هل هذا هو كل شيء؟

– نعم.

تنحنح القسيس وقال: الضجر ليس من عند الله. تذكر ذلك دائماً. ربما كان له هدف خير مثلما قد يكون للشر. ولعله يخدم هدفاً طيباً على

نحو لا نعرفه، ولكن الضجر لا يجيء من عند الله مباشرة. فكر في ذلك. وصَلِّ عندما تكون ضجراً.. وإذا شعرت في البداية بأنك أكثر من ضجرٍ واصل صلاتك على أية حال. أتسمع؟ سوف يجدي ذلك في وقت ما. فقط داوم على الصلاة ـ وتزوج ـ خذ هذه القرابين. هي ما نعيش عليه هنا، وتذكر أنك لست خالياً من المزايا، هي حالة من حالات الكبرياء أيضاً أن يعتقد المرء أنه مذنب.. صورة خاصة من صور الكبرياء مختلطة بالتواضع. ألا تريد أن تتزوج؟ زوجتك تعاني. هذه الحالة. صدقني.

– زوِّجنا.

سكت القسيس ثم قال: أنا مقيد بالقانون، ليس مسموحاً لنا عقد أي زواج غير مصدق عليه رسمياً، لماذا لا تتزوجان بالطريق المدني؟

– أوراقي ليست سليمة وقد يطلبون مني أوراقاً رسمية. زوجنا كما نحن.

تنهد القسيس وظل ساكتاً لفترة طويلة، قال: سأفعل ذلك.. سأفعل ذلك. رغم كل القوانين، يمكن أن أزوجكما بشرط أن تعدا بإتمام الزواج مدنياً فيما بعد، وبأنكما سوف تتمان المراسم الدينية أيضاً.

– أعدك.

– حسناً: تعال أنت وزوجتك ـ بعد القداس ـ إلى غرفة المخزن وأحضر معك أحداً ليشهد وابد ندمك.

وبينما كان القسيس يرفع يديه السنودتين على الطاولة ويطويهما ويصلي بإيجاز وحماس. لا أكثر من لحظة. كان «هانز» يحاول أن يتذكر صلوات الندم التي كان يعرفها ذات يوم ولكنه دون أن يدرك كان يتمتم في نفسه. أنا متعب، جائع، مريض، ارحمني ولكنه كان يتكلم قبل أن يعرف، لابد أنه قد مر بنوبة من الدوار حيث كان وجه القسيس الشاحب الذي نهض من مكانه يحوم فوقه ويهمهم بهدوء: «المجد لله».

وقف في الحال مواجهاً الموقد، وخطر على باله فجأة أنه لم يتلق منه شيئاً على سبيل البركة.

وقال دون أن يلتفت: لماذا لم تعطني شيئاً على سبيل البركة والمغفرة؟

– رتل «أبانا» و«نعظمك يا أم النور» أنت وزوجتك مرة كل يوم.

كان صوته يبدو محايداً تماماً، الضجر والسأم، ووجد «هانز» ذلك مريحاً. بحث تحت السرير، ألقى في الموقد بقالبين من الفحم وقال: سوف أحضر لك بعض القوالب غداً صباحاً. لابد أن تقبلها مني. وعندما استدار، وجد أن القسيس كان قد تناول علبة التبغ وملأها، وضغط الشرائح فيها وأغلقها.

«إذن لابد أن تقبل أنت أيضاً هذه مني، أخي يرسله لي.. هو الذي يزرعه».

قال «هانز»: شكراً.

وكان وهو يودعه يتجنب النظر إلى عينيه!

الفصل السابع عشر

ضوء ذبالة الشمعة ينعكس على غطاء الصندوق الذهبي الصغير ضعيفاً ويرسم على الحائط شكلاً راقصاً. دائرة مرتعشة تحاول الهرب ولكنها وجدت نفسها أسيرة فراحت ترقص بوحشية داخل ساحة صغيرة. كانت الراهبة قد انكمشت على نفسها كأنها ضريح! طبقات متعددة من القماش لا يبدو منها على قيد الحياة سوى يد عريضة شاحبة تربت على صدرها بخشوع، تظهر من طيات الكم ثلاث مرات ثم تختفي إلى الأبد بعد الربتة الثالثة، فتح القسيس غطاء الصندوق مثل ساعة الجيب فانطفأت نقاط الضوء على الحائط وجعل خبز القربان عيني المرأة المحتضرة تضيئان بالسعادة. حاولت أن ترفع يدها وتربت على صدرها مصلية ولكن الألم كان يشل حركتها. جسدها متشنج

وأحشاؤها تتقلص وكأن قبضة كراهية تعتصرها. الم شديد اختفى فجأة، تماماً، وبسرعة.

أصابتها الصدمة مرة أخرى وداهمتها نوبة شديدة من الغثيان، اندفع القيء دفقة غزيرة، انتشر رشاشه على حافة تمثال المسيح ولطخ إحدى الشموع، ولكن الجزء الأكبر من الدفق صنع بركة صغيرة سرعان ما انتشرت حتى كان حذاء الراهبة اللامع يقف وسطها مثل جزيرة، دم، دم أسود!

صرخت الراهبة، أغلق القسيس الصندوق، وللحظة كانت دائرة الضوء ترقص مرة أخرى في سجنها الصغير على الجدار، إلى أن دفع القسيس بالصندوق الصغير تحت ردائه.

المرأة المريضة نفسها لم تغير وضعها ولم يبد أن شيئاً من القيء قد أصابها باستثناء نقطة دم كانت تنثال على ذقنها، نقطة دم سوداء، لزجة. رأت الصندوق يختفي وأدركت أنها قد حرمت من تلك السلوى الأخيرة.

وللحظة بدت بلا نهاية، شعرت بالضعف ولكنه دون ألم إلى أن عادت القبضة القوية تعتصر أحشاءها من جديد، تلك القبضة التي كانت تمسك شيئاً بلا قوام. ألم خواء قاتل. إلا أنه يمكن أن ينفجر ويرتفع تحت ذلك الضغط الوحشي ثم يندفع بسرعة. هذه المرة تدفق

الدم على صدرها ثقيلاً لزجاً وكان الفرش على السرير يمتصه مثل الحبر، بقعة سوداء داكنة.

بدا وجه القسيس وكأنه يقف في الفضاء دون جسد. تلاشى رداؤه الأسود في الظلام والآن يقف وجهه وحيداً متعباً مصدوماً، يداه مطويتان متصلبتان في مكان الصدر.

همست: باركني مرة أخرى.

نظر إلى الأرض ورأى يدي الراهبة وهي تفرد المسحة: الحشوة الرمادية الرطبة لا تستطيع أن تمتص الدم الذي بدا سميك القوام، كان يتخثر بسرعة وينزلق. مادة غريبة!

اقترب منها. باركها وهمس «لا تحتفي؟ لقد تلقيت قربان البركة والمغفرة والمسح بالزيت المقدس: أعطي ألمك لرب العالم بكل آلام البشر».

همست: نعم! نعم! استدع الطبيب.

رأته يدخل في نفس اللحظة، وإلى جوار هيئته العريضة كان هناك شخص آخر يزرر معطفه الأبيض، ومن التعبير الجاد المرهق المرسوم على وجهه، والإيماءات البسيطة أدركت في الحال أنه كان أخصائياً.

حاولت أن تقاوم عندما جذب قميصها إلى أعلى ليتحسس معدتها، كان وجهه خالياً من أي أمل وكان قريباً منها. على صدرها تقريباً وجه مغرور لرجل مسن، وطقس طبيب كبير مدرب وسيناريو متبع: شك، حواجب ترتفع، تفكير. سأم، وهو يفحص المنطقة حول سرتها بأصابع

منفرجة. صرخت عالياً عندما ضغط بشدة فجأة، أحست بأصابعه الخمسة، خمس سكاكين من الصلب تخترقها، رأت ملامح الرضا على وجهه، وهمست: ابعد.. ابعد عني!

والآن كان يستمع إلى قلبها، اندفع الدم من فمها على ظهره. لم يعد الدم ينتشر، الدم الآن كتلة سوداء تخثرت بمجرد أن خرجت من فمها. لم يزعجه ذلك: ظل محنياً عليها مثل جنرال يدرس خريطة رغم تساقط القذائف حول موقعه، مدركاً أن انسحابه كان مُؤمّناً وأن أنواطه مؤكدة، ولكن الأشياء الصغيرة هي التي تحقق له السمعة الطيبة، ضبط النفس. ورغم أنه كان قد قرر منذ وقت بعيد وعرف كل ما يريد أن يعرفه، ظل محنياً فوقها للحظة ثم رفع قامته. سحب البطانية فوقها بهدوء وأشار إلى زميله وانتحى به جانباً:

– هل الأشعة معك؟

– نعم. وصلت الآن.

تناول الشريحة الضوئية من المظروف وأومأ للراهبة أن تقترب بالشمعة ورأى أن القسيس كان يقترب من السرير مرة أخرى. ألقى ضوء الشمعة بشفافية محمرة على الشريحة السوداء لتظهر دائرة رمادية غريبة الشكل فيها نقط كثيرة، سوداء. قاتمة. قال الأخصائي: شيء مذهل، مذهل أنها ما زالت على قيد الحياة! هذه هي الأشعة التي أجريت لها منذ أربعة أيام.

أشار الطبيب للراهبة أن تنحني قليلاً حيث كان ظلها يغطي الصورة الضوئية الثانية ثم نقر ثلاث مرات بسبابته على السطح الرمادي المحمر الذي لم يكن واضحاً وقال:

– واحد. اثنان. ثلاثة. هذا كل ما في الأمر. أنا بنفسي عملت لها هذه الأشعة!

– الثانية؟

– نعم، لابد أنها انتشرت، مثل الثآليل التي تملأ اليد فجأة، في رأيي لابد أن تكون القرح تحتوي على مادة تسبب قرحاً أخرى عندما تتفصد، مثل الثآليل، ربما لها أصل عصبي.

لم يرد الأخصائي، أخذ الصورة الثانية من يد زميله، وضع الصورتين جوار بعضهما وتمتم: من الصعب أن تصدق أن الصورتين لا يفصل بينهما وقت طويل، إلا إذا كان الأمر.

– أنا متأكد.

– طبعاً، وأنا أعرف الظاهرة، إنها نادرة.

المرض يتطور بسرعة هندسية، وربما كان من المفيد ـ ثم أخفض صوته ـ أن نعمل لها أشعة ثالثة وهي في هذه الحالة. الآن. على أية حال يجب أن نقوم بتحليل الدم المطرود.

ـ أحمل عينة كافية منه على ظهر المعطف، لابد أن نتكلم أيضاً مع والد زوجها، تعال معي من فضلك ـ ثم خفض صوته أكثر ـ لو أمكننا إجراء تشريح للجثة، تعال».

***

كانت ترى القسيس بالقرب منها ولكنها لم تعد تسمعه، وجهه فقط واضح في بؤرة إبصارها، والقلق والإرهاق يلعبان لعبة شد الحبل، شفتاه تتحركان بسرعة ولكنها لا تفهم شيئاً، وبدت لها تلك اللعثمة السريعة مثل همسات عاشق سعيد، وفي عيني القسيس الواسعتين الجميلتين كان هناك خوف وفرح ساذج.

قالت: نقود، لدي نقود كثيرة، سأعطيها لك هل تسمعني؟

رأته يهز رأسه، وتوقفت التوسلات الصامتة، ارتعدت شفتاه قليلاً، «نقود كثيرة لك، ولا شيء لهم، كل شيء من أجلك، أنفقها، نقودي كلها هل تسمعني؟».

هز رأسه ثانية، خيل إليها أن «ويلي» كان يقف إلى جوارها، نجوم رتبته العسكرية تلمع في الظلام. ركع.

رأت الضفيرة الفضية على كتفه بوضوح. رأتها مكبرة. شريطان لامعان على شكل حدوتي حصان ونجوم على أرضية خضراء. كان

مكتبة ٢٨٨

وجهة شاحباً ومهزولاً، استبد به الإرهاق لدرجة أنها كانت لا ترى فيه أي أثر للخداع.

عندما خفض رأسه رأت الندوب وسمعته يقول:

«أحبك كما يحب إنسان ضريحاً ـ ليس أنت، بل ضريح. لأنني أحببتك ذات يوم، وما زلت أعرف ذلك».

رفع رأسه مرة أخرى للحظة، حينئذ رأت رأسه فقط «بالضبط. لا أكرهك وهذا يعني الكثير. لا أكرهك، وكنت أريد أن أودعك ـ أن أراك مرة أخرى، فنحن لن نرى بعضنا بعد ذلك».

كانت تريد أن تريح يدها على رأسه ولكنها لم تستطع، فجأة كان وجه القسيس أمامها، وأشرطة الرقيب المجدولة من حوله إطاراً له..

وسمعت صوتاً آخر يقول: «لا تفكري في النقود في ساعة».

همست: «صحيح! أن أفكر في النقود، أريد أن...».

برزت رأس «ويلي» مرة أخرى وكان الرأسان يتناوبان بسرعة مثل الصور. والصوتان كذلك، أحدهما يتحدث إليها بحميمية والآخر بطريقة رسمية!

«بحيث لا يحصل الرجل العجوز على أي شيء، عدني بذلك».

«وأنت واقفة أمام العرش للحساب، لا يجب أن».

«أكرهه، لابد أن تعدني».

ومع صوت «ريلي» كانت تسمع أصوات طلقات مدفعية في المدينة، أصوات قوية، هادرة، تختلف عن أصوات القنابل عندما تسقط.

- والآن سوف أقرأ الآية.

في نفس الوقت الذي عاد فيه الصوت هدأت نيران المدافع «لابد أن انصرف إذن».

«لأن الذي حُبِلَ به فيها هو من الروح القدس».

رأت الشكل الرمادي يتجه ناحية الباب، يفتحه ويغلقه. وعندما أغلق الباب خمد أيضاً هدير المدافع الكئيب في الخارج.

كان الألم وخزاً ضعيفاً راح يتضخم مثل عواء شديد يقلب أمعاءها، يقبض عليها، يدفع بها إلى أعلى. شعرت بها كتلة في حلقها، ولم تعرف أنها كانت تصرخ ولم تعد تسمع صوته وكان آخر ما رأت الشفتين اللتين تتحركان في صمت.

دفق الدم الأسود الساخن ضرب ذقن القسيس بقوة، الرائحة المقززة. الزلقة. داهمت أنفه. أصابته بالدوار. فنهض بسرعة ولكن الوقت كان متأخراً، كانت أزرار ردائه الكهنوتي ما تزال مفتوحة وتدفقت الموجة على قميصه من الأمام إلى أسفل. فشعر بها ثقيلة ورطبة وقف، جذب الصندوق الذهبي ونظر إليه بقلق. كان ملطخاً. قبض عليه بحرص بيد واحدة حتى لا يسقط، كان يفرك الجانب الملوث من كمه بعصبية، بينما يرى الراهبة وهي تنحني على السرير بسرعة، لدرجة أن الشموع

كانت تهتز وتضخم الظل النحيل للتمثال الواقف. كان ظل الأشعة المتقاطعة يتأرجح فوقهم عريضاً وداكناً على السقف، ثم انكمش الضوء، وغاص معه ظل الصليب الكبير منكمشاً هو الآخر، ثم رأى ظلاً آخر، المسؤول عن الشموع، ظهر على هيئة قلنسوة كبيرة، هبطت فوق شمعة من الشموع بهدوء، بقي الركن مظلماً وانحرف ظل التمثال قليلاً إلى اليسار ناحية السرير حيث كانت شمعة وحيدة مشتعلة.

سأل بهدوء: هل ماتت؟

أومأت الراهبة. رحمة الله على روحها المسكينة!.

استدار الرجل الذي كان قد رآه لفترة وجيزة في الصالة بوجهه الصلف وشكله النحيل. اقترب ببطء، وصدمه أن يرى دموعاً في ذلك الوجه الحجري القديم. فكر، ربما كان الأب. فسح له الطريق ليمر وكذلك فسحت له الراهبة. كان يرى المرأة الميتة لأول مرة، الوجه الصغير شاحب مصفر، والفم ما زال مفتوحاً كما لو أن هناك دفعات أخرى من الدم قادمة.. الفم المفتوح الملوي!.

الألم يعطي للوجه تعبير الإرهاق والقرف، أشارت له الراهبة بالانصراف فأعاد الصندوق الذهبي إلى داخل ردائه. وأحكم قلنسوته بعناية، وانصرف.

الفصل الثامن عشر

نظر «فيشر» إلى الباب وعندما رآه مغلقاً انحنى وفتح الكومودينو جذب الشبشب وجورباً قذراً ملفوفاً، وجهه الآن قريب من الأرض ويرى أن آثار الدم لم تتلاش تماماً. كانت هناك قشرة رقيقة سوداء ملتصقة بالأرض. تنهد! نظر إلى الشمعة، وعندما أزاح المبولة واتكأ على جانب السرير وهو يلهث شعر بشيء يشبه الخجل. تذكر كل الحكايات التي كان قد سمعها عن حالات الميراث. تدفق عرقه غزيراً. لم تكن الورقة الصغيرة موجودة حتى في المبولة. جفل عندما أحدث قفل الباب صوتاً، واكتشف وهو ما يزال على الأرض حقيبة في الظلام الخفيف تحت السرير. انبطح محاولاً الوصول إلى يدها ولكن الحقيبة انزاحت إلى الداخل. لا فائدة من المحاولة! كان عليه أن يخفض رأسه ويدخلها تحت السرير. ويتحسس طريقة بيديه. انتابه الغثيان. وجهه في

التراب، عندما جثم ليزحف إلى الداخل لمس أنفه الغبار، ودخلت في فمه بعض خيوط من السجادة فانتابته نوبة من الكحة منعته في النهاية من القبض على يد الحقيقة.

كتم نفسه وكبح الكحة وأمسك باليد الجلدية، للحظة بدا كل شيء ساكناً، وفي ذلك السكون سمع الباب يفتح ويغلق. ظل راقداً، سمع خطوة واحدة، ثم هدأ كل شيء مرة أخرى. فكر أن شخصاً ما لابد أن يكون واقفاً هناك الآن ينظر إلى رجليه، إلى حذائه، إلى النصف الأسفل المضحك من جسم رجل يرقد تحت السرير. أخذ يسب لنفسه في صمت وأراحته الهمهمة العنيفة القبيحة إلى حد ما. فكر بكلمات لم يلفظ بها أبداً بصوت عال وما كان يعرف أنها موجودة، فكانت بمثابة إنقاذ له. قرر أن يزحف إلى الخلف بيد، وبيده الأخرى يقبض على الحقيبة، وأطلق زفرة قوية فغطته سحابة من الغبار دخلت إلى أنفه وفمه. عطس رغماً عنه، اشتبكت ياقة قميصه بجزء من سلك المرتبة فتوقف مرة أخرى عن الزحف وراح يلعن ويسب لنفسه بأقذع الألفاظ، شاعراً بالعرق الممزوج بالغبار. اهتز، أحس بالياقة وهي تتمزق، وبالتدريج شق طريقه خارجاً من تحت السرير وظهره للشخص الذي يقف وراءه. ثم ألقى بالحقيبة على السرير.

تمتم من فوق كتفه وهو يمسح وجهه وينفض التراب عن ملابسه:

ماذا تريد؟

مكتبة ٢٨٨

لم ير شيئاً تقريباً، كان قلبه يخفق، وببطء كان مجال بصره يعود إلى مكانه: التمثال الموضوع على الكومودينو والجدار المائل للحمرة.

استمر في السب دون أن يدرك ودون أن يعرف السبب، أحس بضغط شديد مفاجئ استسلم له، مع شعور بالراحة وفرح غريب، حاد وخبيث، متعة تكوين كلمات قبيحة مقززة، وجمل وعبارات منفرة من عالم مجهول انفتح له دون عناء، وراح يفكر بها وكأنها فدية لخجله، لم يكن مكترثاً بأي شيء آخر، تلك الورقة الصغيرة فقط. جلس بهدوء على السرير يمسح وجهه ويستعيد الرؤية، كانت أمامه الصورة الثابتة لشاب شاحب يمسك في يده بقبعة جندي وينظر نحوه بعدوانية شديدة.

قال بصوت عال أشبه بالنباح: ماذا تريد إذن؟

هل تبحث عن أحد؟ فتح الحقيبة في نفس اللحظة، فتش في جيوب الغطاء ونظر إلى الشاب متسائلاً؟

«السيدة جومبرتز، أبحث عن السيدة «جومبرتز»، قالوا إنها هنا في غرفة رقم 16».

استيقظ فضول «فيشر» عندما وجد عدداً من الكتب بين ملابس المرأة. رد بهدوء: «السيدة جومبرتز ماتت» وفجأة، تذكر قيمة تلك الورقة الصغيرة بالنسبة لأبيها وأقاربها، كم هي مهمة! دق قلبه بعنف وكان اهتياجه أكثر سخونة، لدرجة خانقة. عرف أنه لن يجد شيئاً في الحقيبة وأخذ يفتش يائساً بين الملابس، وجد كتاب صلوات راح يقلب

صفحاته بسرعة، لم يرفع بصره حتى وقع عليه ظل الشاب.. حينذاك توقف لينعم النظر في الوجه الشاحب، صاح عندما اقترب منه ـ السيدة «جومبرتز» ماتت، ماذا تريد؟

قال هانز «أنت تبحث في المكان الخطأ».

سار ببطء نحو الكومودينو، ورفع التمثال وجذب الورقة الصغيرة البيضاء من تحت القاعدة وقال: كانت تحتفظ بها في المنزل في نفس المكان».

شعر «فيشر» بأعصابه تخذله، وكان عليه أن يزم شفتيه ليكتم صرير أسنانه ولكنه كان يحس بفكه يقرقع بشدة خلف الفم المحكم. رأى الغريب يضع الورقة في جيبه، يغرزها. وفتح فمه بجهد جهيد: «أنت تدرك» تعلثم «أنت تعرف معنى تلك الوثيقة».

– أعرف أيها البروفسور، وأنا الذي أحضرتها لها.

– أنت؟ أخبرني. أنت، ألا نعرف بعضنا؟

– «نعرف بعضنا». قال «هانز» مبتسماً واستدار نحو الباب. صرخ فيشر: «قف! »، وتوقف «هانز».

أغلق «فيشر» فمه بإحكام ليكبح نوبة تشنج لا إرادية جعلته يطحن على أسنانه ويخفف من لعناته التي وجدها مجدداً.

كان يمضغ بمتعة بالغة تلك العبارات البذيئة التي استيقظت داخله. عبارات اليأس! وفجأة وثب على الرجل. لاحظ المفاجأة على وجهه

المصدوم واستغل أول جزء من الثانية ليدفعه نحو الحائط ويلوي ذراعه وهو يفتش بيده الأخرى وبكل إصرار في جيبه الأيسر.

ضحك عالياً عندما أحس بالورقة في يده وجرى خلف السرير. وقف هناك مستعداً للنزال، قبضتاه مرفوعتان مثل الملاكم ولكن الرجل الآخر لم يتحرك من أمام الجدار.

صرخ «فيشر»: «لا قيمة لها بالنسبة لك. هل تريد نقوداً؟ وعلى أية حال لا أعتقد أنها صحيحة.

لم يتلق أي رد. انسحب الرجل ببطء من أمام الحائط وسار بهدوء نحو الباب.. الرجل الذي كان لا يعرف اسمه والذي يعتقد أنه كان قد التقى بوجهه ذات مرة، وعلى نحو سريع خاطف.

***

تردد «هانز» عندما وصل إلى ردهة المنزل الكبيرة، المضاءة. وإلى اليسار، كان يقف الملاك الذي استقبله في تلك الليلة. توقف «هانز»، وكأن التمثال يومئ إليه أو يبتسم له من الجنب. فاستدار نحوه ببطء.

حدقَتا العينين المركزتان بعيداً عنه، زهرة الزنبق المذهبة لم تتحرك، الابتسامة فقط تبدو له، ورد عليها بابتسامة شاحبة، الآن فقط وعندما كان التمثال يقف في النور، يرى أن ابتسامة الملاك كانت ابتسامة ألم.

لم يلتفت حتى سمع صوت ريجينا وجفل لرؤية الفرح في عينيها.

سألته: حسناً! ماذا؟

قال: ماتت!

ماتت.

أومأ. قالت: لا يهم! سنجد شخصاً آخر ليشهد. أخذها من ذراعها، وهبطا السلالم معاً.

الفصل التاسع عشر

كان التمثال المرمري الطويل صامتاً رغم أن القسيس كان يحدق فيه وكأنه يكلمه. كان يخفي جانب وجهه في الطين الأسود.

البقعة السوداء في مؤخرة رأسه تعطي الانطباع أنه كان قد انتزع من مكانه في العمود عنوة. وسقط على الأرض لكي يبكي، أو يشرب. وجهه ملقى في بركة من الماء العكر، خصلات شعره الصلبة ملطخة بالطين وعلى خده المستدير بقعة سوداء. أذنه المائلة للزرقة هي فقط التي كانت نظيفة. وبجانبه قطعة من سيفه المكسور. ملقاة! كأنه يصغي. ولا أحد يمكنه أن يعرف ما إذا كان وجهه يعبر عن الاحتقار أو الألم.

كان صامتاً، بركة ماء صغيرة متجمعة على ظهره، وأخمص القدمين يلمع ندياً بلون أزرق.

أحياناً، عندما كان القسيس يحركه ويتقرب منه قليلاً، كان يبدو وكأنه يريد أن يقبل قدميه، ولكنه لم يرفع وجهه من الطين. كان ينام هناك مثل جندي في حمى خندق منيع. ترنم القسيس: دعنا نتذكر. إن علينا أن نقيم الحداد على أنفسنا وأشار بيديه الغليظتين البيضاوين نحو المقبرة، حيث كان التابوت يقف بين عمودين من المرمر، مغطى بقماش أسود والمطر يتساقط من جواربه.

قال القسيس: دعنا نتذكر أن الموت بداية الحياة.

كان مساعده يقف خلفه ممسكاً بمقبض المظلة بشدة ويحاول أن يحركه ويديره مع تحركات القسيس، ولكن البلاغة كانت تتدفق على القسيس فجأة لدرجة لم يستطع أن يتبعها، وكلما كانت قطرة مطر تسقط على رأس القسيس كان ينظر خلفه نظرة لوم حيث كان الشاب الشاحب يمسك بالمظلة بثبات. كان القسيس يقول متجهاً نحو التمثال المرمري: دعنا نتذكر أننا أيضاً، نحن أيضاً. نقف دوماً على عتبة الموت، دعنا نفكر فيها، العزيزة المحبوبة الفقيدة المباركة، التي عاشت كجزء من أسرة كاثوليكية كبيرة شديدة الإيمان، والتي تدين لها مدينتنا بالكثير. دعنا نفكر فيها. وكيف اختارها الله إلى جواره. الله الذي أرسل إليها رسوله الذي لا يراه أحد.

وسكت لحظة وهو حاسر. خيل له أن الخد المرمري النظيف يتحرك بابتسامة، رفع القسيس نظرته المضطربة. وراح يفتش بين المظلات عن البقعة التي يبدو فيها الحرير أكثر نعومة وأغلى ثمناً.

«لقد روعت العائلة بموتها المفاجئ».

مرت عيناه على المظلات إلى حيث كانت تقف مجموعة صغيرة تحت المطر «كيف يجب أن يقيم الفقراء الحداد لفقد معينهم المخلص المستنير، دعنا لا ننسى أن نصلي من أجلها، كلنا، نعم كلنا، نحن الذين قد نفاجأ في أي لحظة بذلك الرسول الذي لا يراه أحد والذي يرسله الله من لدنه، آمين».

ثم مرة أخرى في أذن التمثال المرمرية: آمين!

ردد الجمع: آمين وسرت همهمة عميقة كالصدى داخل الكنيسة الصغيرة.

قال «فيشر»: «لنقف هنا، هذا المكان جاف» ساعد والد زوجته وترك له المكان المسطح بينما وقف هو في الناحية الأخرى المتحررة. خلعوا قبعاتهم عندما بدأ القسيس طقوسه في الداخل. غاص التمثال المرمري ببطء، هبط خده المستدير في الأرض الطرية وابتلع الطين أذنه النظيفة تماماً.

قال فيشر: «إنها معي هنا».

أخذ «جومبرتز» الورقة الصغيرة وقرأها، ارتعش وجهه الحزين وتمتم بهدوء «التحية الأخيرة من ابني، وثيقة على بغضه، ذلك البغض الذي لم أفهمه أبداً».

– هل تعتقد أنها حقيقية إذن؟

- لم أشك في ذلك أبداً.

ومزق الورقة ببطء إلى قطع صغيرة ثم دفع القطع الصغيرة بحرص داخل فتحات قفازه. وفي الداخل كان الساعد يردد صلوات القسيس، رأوا أن القسيس كان مرتبكاً للحظة، لا يعرف أين يلقي بالتراب الذي كان يحمله في الجاروف، ثم سنده أخيراً على التابوت، فتناثرت كتل الطين على أحجار الشارع.

ظل التمثال صامتاً، ترك نفسه يغوص إلى الأسفل تحت ثقل الرِجْلَين، خصلاته المزخرفة يطويها الطين وما بقي من ذراعيه يغوص تدريجياً.